السمّان والخريف

١

السمّان والخريف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

١

وقف القطار ولكنه لم يجد أحدا فى انتظاره. أين السكرتير؟، أين موظفو المكتب؟ أين السعادة؟. وأجال بصره فى المكان والناس بلا جدوى. ماذا جرى!. هل دار رأس القاهرة تحت ضربة القنال الآثمة؟!. وغادر موقفه عند مقدمة العربة فسار حاملا حقيبته الصغيرة نحو الخارج وهو يقطب استياء، ثم ساوره قلق. وتفحص الوجوه بدافع غريزى فوجدها تعكس انقباضا مخيفا، وتحركت فى أعماقه غريزة تتنبأ بالمخاوف. أهى مذبحة الأمس بالقنال أم أحزان جديدة تزحف؟. هل يسأل الناس عما وراءهم؟! ولم ينتظره أحد. ولا واحد من مكتبه شذ عن هذا السلوك العجيب!. يا لها من أيام غريبة حقا. ولم تزل ذكريات القنال تاشبة فى رأسه بكل حدة. المشاهد الدامية. مذبحة رجال البوليس، البطولة العزاء. ولم يزل صوت الشباب الفدائى يخرق أذنه وهو يصيح غاضبا:

ـ أين أنتم.. أين هو الحكومة!.. ألستم أنتم الذين أعلنتم الجهاد؟!

فقال فى حرج شديد :

ـ بلى ، ولهذا تجدنى أمامك فى هذا الخلاء . . .

فصرخ فى غضب أشد :

ـ نريد سلاحا ، ولم تقترون علينا !

ـ اليد قصيرة ، وموقف الحكومة ددقيق . . .

ـ وموقفنا نحن ! . . وموقف الأهالى الذين خربت بيوتهم ؟ !

ـ أعلم ذلك ، كلنا نعلم ذلك ، صبرا ، وسنبذل أقصى ما نستطيع . . .

ـ أم تقنعون بالفرجة ؟ !

يا لها من غضبة كالنار . ولكن ماذا فى القاهرة ؟ . .

لا عربة واحدة لتنقله . وفى ميدان المحطة جماهير تجرى فى كل اتجاه . الغضب يشتعل فى الوجوه وللعنات تنصب على الإنجليز . الجو بارد والسماء متوارية خلف سحاب متجهم والهواء ساكن لا حياة فيه . الدكاكين مغلقة كالحداد وعند الآفاق تصاعد دخان كثيف . .

ماذا فى القاهرة ؟ !

وتقدم فى حذر ، وأشار إلى رجل يقترب ثم سأله :

ـ ماذا فى البلد ؟

فأجابه فى ذهول :

ـ القيامة قامت . .

فسأله فى إلحاح :

ـ تعنى مظاهرات احتجاج؟!

فهتف وهو يأخذ فى الجرى :

ـ أغنى النار والخراب . . .

وواصل تقدمه الحذر البطىء وهو يتفحص ما حوله . وتساءل فى دهش : «أين البوليس؟ . أين الجيش؟» . وفى شارع إبراهيم تجلت حقيقة اليوم بصورة أبشع . خلا الميدان للغاضبين . انفجر مكنون اللاوعى كالبركان . صراخ جنونى كالعواء . انقضاض على أى قائم على الجانبين . بترول يراق . حرائق تشتعل . أبواب تحطم . بضائع تنتثر . تيارات تندفع كالأمواج المتلاطمة . الجنون نفسه بلا رقيب . هاهى القاهرة تثور ولكنها تثور على نفسها . إنها تصب على ذاتها ما تود أن تصبه على عدوها . إنها تنتحر . وتساءل فى فزع ماذا وراء ذلك كله؟! واستفحل نشاط غريزته التى تتنبأ بالمخاوف . وأيقن أن مأساة حقيقية سيرفع عنها ستار الغد . ثمة خطر يتهدد صيم حياتنا . يتهددنا نحن لا الإنجليز . يتهدد القاهرة والمعركة القائمة فى القنال والحكومة ويتهدده هو باعتباره جزءا من هذه الحكومة . هذا الطوفان سيقتلع الحكومة والحزب وشخصه فى النهاية . هيهات أن يعتصر هذا الخوف من

قلبه. هيهات أ يتناساه رغم دوامة الجنون المحدقة به. كأنها أقوى من الجنون والخراب والنار. وإنه ليؤمن بغريزته بهذا إيمانا قاتلا. هى نذيره فى أوقات الأزمات السياسية وقبيل الإقالات المتعددة التى أطاحت بحزبه عن كراسى الحكم المرة تلو المرة. لعلها النهاية. وستكون نهاية مميتة لم تسبق بمثيل لها من قبل.

ومضى يقترب من قلب المدينة فى ذهول تام. صمم على أن يطلع على كل شىء. إنه مسئول، ومهما يكن من ثانوية مركزة نسبيا فهو مسئول ويجب أن يرى كل شىء بعينه، الضوضاء فوق كل احتمال كأن كل ذرة فى الأرض تصرخ. اللهيب ينطلق من كل موقع. إنه يرقص فى النوافذ، يقعقع فى الأسقف، يصفر فى الجدران، يطير فى الجو والدخان يتربع مكان السماء. رائحة الحريق تقتحم الأنوف كعصارة جهنمية من الخشب والأقمشة وزيوت شتى. هتافات غامضة كأنما تنبثق من الدخان، غلمان يخربون كل شىء فى نشوة وبلا مبالاة. جدران تنهار مفجرة رعدا. الغضب المكتوم، اليأس المضغوط، الضيق المتكتل، كل أولئك حطم القمقم وانطلق كزوبعة من الشياطين. وقال لنفسه إن أشياء كثيرة يجب أن تحرق ولكن ليست القاهرة. وأنتم لا تدرون ماذا تفعلون. إن فرق كاملة من الإنجليز لتعجز عن إحداث عُشر هذا الخراب، أنتهت معركة القنال. خسرنا المعركة. قلبى المجرب بالمحن لا يكذب. الحكومة بلا جنود والنار تجرى بلا عقبة. هل تلتهم النيران المدينة الكبرى؟. هل يمسى ثلاثة ملايين من البشر بلا

مـأوى؟ . هل ينعق الخـراب والمرض والفـوضى ويرجع الجـيش البـريطانى ليـعـيد الأمن إلى نصـابه؟ . هل ينسى الناس فى مـحنة الخراب الاستقلال والوطنية والآمال العريضة! . إن القلق يدب فى جـذور قلبـه كـالنمل وتسـود الدنيـا فى عـينيـه اللتين زايلهـمـا الطموح والمجد . وعند الأركان فى الشوارع الرئيسية لبد رجال يحرضون :

ـ احرق . . خرب . . يحيا الوطن . .

تفحصهم باهتمام وحنق . ود لو يستطيع أن يقنعهم . ولم يمكنه التيار المتضارب من الوقوف قبالتهم لحظة . إنهم وجوه غريبة لا هى من حزبه ولا من الأحزاب الأخر . إنها وجوه غريبة تفوح منها رائحة الغدر ، وخيل إليه أن فى الجو رائحة عفنة أشد كآبة من الدخان . وزفر مع اليأس والذهول غضبا :

ـ احرق . . خرب . . يحيا الوطن . . .

يا للأوغـاد! . هل تذهب دمـاء القنال هدرا؟ وأرواح جنود البوليس وضباطهم؟ . إن كل ما هو قيم وجميل يبدو أنه سيصير هباء . كيف السبيل إلى الوزارة ليقابل المسئولين؟ . ليس في الطرقات إلا حطام سيارات ، ليس فى الجو إلا حرة قانية تحتدم تحت سواد . ماذا يقول للفدائى الغاضب لقلة السلاح إذا اطلع على هذا المشهد الغادر الدامى؟ . ما عسى أن يقول لو سمع نداء المؤامرة؟

ـ احرق . . خرب . . يحيا الوطن . . .

النار والخراب والدخان شعارات اليوم الفظيعة ولكن الخيانة اللابدة فى الأركان أفظع . وتلاطمته أمواج الثائرين الجنونية فازدرد ريقه مرات بمعطفه الرصاصى الطويل ولفظته وقد اختل توازنه واصطكت بساقيه حقيبته وهو يشد على مقبضها بقوة مستميتة . وتلاشت من رأسه نقاط التقرير الذى كان عليه أن يرفعه إلى الوزير عن سير المعركة ومطالب الفدائيين . وفكر فى المستقبل على ضوء العاصمة المحترقة فلاح لعينيه كالدخان . وتذكر وهو يميل إلى منعطف أقل وحشية حديث عضو الشيوخ المعمم الذى قال معلقا على إلغاء المعاهدة :

ـ انتهينا والأمر لله !

وغضب وقتذاك وهو يجلس لصقه بالنادى وصاح :

ـ هكذا أنتم أيها الشيوخ لا يهمكم إلا مصالحكم . .

فقال له بتوكيد وبلهجة لم تخل من سخرية :

ـ هذه هى النهاية والأمر لله !

فارتفع صوته فى حماس :

ـ ليس فى كل ماضينا المجيد موقف كهذا ! !

فعبث الشيخ بشاربه ، وقال بحزن :

ـ بلى ، كأيام سعد ، ولكنها النهاية !

شيخ مجرب طوى عهد الحماس ولكن ها هى القاهرة تحترق، وهؤلاء الغادرون فى الأركان ما أكثرهم. واليد قصيرة إذا اقترنت ببصيرة فليسكر صاحبها بنقيع الأحزان حتى يغرق. وفى الفضاء المكتظ بشظايا الخراب نجسد الحزن كأنه وحش قتيل. ونال منه الإعياء فقرر أن يشق الطريق إلى مسكنه.

وخيل إليه أن دهرا طويلاً سيمضى كالسلحفاة قبل أن يلمح مشارف الدقى.

٢

عند جثوم الليل ذهب إلى سراى شكرى باشا عبد الحليم على مسيرة ربع ساعة من مسكنه بحى الدقى. واستقبله الباشا فى حجرة مكتبه فجلسا على مقعدين متقاربين. وبدا الباشا فى المقعد الكبير شبه ضائع بجسمه النحيل القصير ولكن وجهه الصغير المستدير الناعم عكس اكفهرارا مغلفا بهدوء الشيخوخة. وأعلنت بدلته الرمادية الإنجليزية عن أناقة عريقة واستقام طربوشه الأحمر الفاتح على رأس لم يبق فوق سطحه شعرة واحدة. تبودلت كلمات الترحيب فى عجلة دلت على خطورة الموقف. وشعر عيسى بحرج أول الأمر لما علمه من تطلع الباشا إلى الوزارة ولما تردد من شهر أو أكثر عن ترشيحه لها فى أول تعديل وزارى. وأفدح الخسائر ما أصاب الجانبين الشخصى والعام فى وقت واحد. ترى كيف يفكر هذا الشيخ الذى انتظر الوزارة طويلاً؟. هذا الشيخ الذى هبط نشاطه فى مكتبه إلى الحد الأدنى، والذى لم يعد له من عمل حقيقى سوى نشاطه باللجنة المالية بمجلس الشيوخ. رثى له كما يرثى لنفسه، ورنا إليه بنظرة

مترددة كنوع من العزاء وهو يجلس على المقعد بقامته الرشيقة وقد استزد وجهه ـ بعد الراحة فى بيته ـ رونق الشباب زغم جريان الهم فى نقاسيمه . وقال الباشا وهو يدير خاتم الزواج حول بنصره :

ـ سنؤرخ بهذا اليوم طويلاً . .

فقال عيسى متشوقا لمعرفة أى جديد :

ـ شهدت جانبا منه ، يا له ن يوم أسود! . .

وأحنى رأسه الكبير المستطيل حتى ترامت صفحة شعره المجعد أمام عينى الباشا ثم رفعه مقطبا ليتطلع إليه بوجهه المثلث الذى ينبسط عند الجبين ويضيق رويدا حتى يرتكز على ذقن مدبب . وتساءل الباشا :

ـ إذن جئت والقاهرة تحترق؟

ـ نعم كانت الجحيم نفسه يا باشا . .

ـ يا خسارة! . . وكيف وجدت الحال هناك؟

ـ الشبان فى غاية من الحماس ولكنهم فى حاجة ماسة إل السلاح ، أما مذبحة البوليس فقد هزت القلوب هزا .

ـ معركة ظالمة مشئومة . .

فقال عيسى بضيق :

ـ نعم، إننا ندفع دفعا نحو . .

وتلاشت الكلمة الأخيرة بين شفتيه فى إشفاق فتلاقت أعينهما فى كآبة، وسأله الباشا :

ـ ماذا يقول الناس عنا؟

ـ الروح الوطنية عالية جدا، أما أعداؤنا فيقولون إننا افتعلنا معركة لنشغل الناس بها عنا .

فانحرف جانُب فيه فى احتقار قائلا :

ـ سيجدون دائما ما يقولونه، أوغاد . . أوغاد . .

وبينهما قام خوان، وفوق الخوان إبريق مفضض وطبق بسكوت فطلب الباشا إلى عيسى ـ دون كلفة ـ أن يملأ قدحين، وراحا يحتسيان بلا لذة، وفى أثناء ذلك امتد بصر عيسى إلى صورة سعد زغلول المعلقة فى الجدار فوق المكتب الفخم إلى يمين مجلسهما . وقال عيسى :ـ تصور سعادتك أننى لم أستطع الاتصال بوزيرى حتى الآن . .

فربت الباشا على شاربه الفضى برقة وقال :

ـ قل فى هذا اليوم ما شئت، أين الوزير؟ . . لا أحد يدرى، أين البوليس؟ . . لا أحد يدرى أين الجيش ؟ . . لا أحد يدرى؟ اختفى الأمنوزحف الشيطان . .

ـ ترى هل ما زالت النار مشتعلة؟!

مد الباشا ساقيه حتى طوقتا أرجل الخوان الأبنوسية فاشتد لمعان حذائه الأسود تحت سمت النجفة البللورية الرباعة الأذرع وحانت من عيسى التفاتة إلى المدفأة المركبة فى الجدار فأعجب بشفافية لهيبها الأحمر المتراقص وتذكر المجوس.

ثم سرعان ما استلمح الدفء الذى يهبه بجود، وجرت عيناه برشاقة على الأثاث الكلاسيكى المجلل بالوقار والفخامة وأحزان الوداع فتذكر مرثية أنطونيو فوق جثة قيصر. أما شكرى باشا عبد الحليم فأجابه في كسل متعمد:

ـ آن للنار أن تنطفئ بعد أن أدت الخدمة المطلوبة!.

فالتمعت عينا الشاب العسليتان المستديرتان، ثم قال مستدرجا محدثه إلى المزيد:

ـ لعله الغضب الزهوج..

ابتسم الباشا عن طاقم نضيد وقال:

ـ كان غضب، وكان وراء الغضب حقد، أما الغضب فأهوج حقا، وأما الحقد فذو خطة مرسومة.

ـ وكيف يقع هذا ونحن فى الحكم؟.

ضحك الباشا ضحكة جافة مختزلة وقال:

ـ هذا اليوم كالليل المتراكم السحب، انتظر حتى نعرف أين الرأس وأين القدم.

تطاول عيسى فى توتر ثم زفر حتى أرعش أهداب غطاء الخوان المخملى، ثم تمتم متسائلا :

ـ الأحزاب؟؟

فانحرف إلى أسفل جانبا الفم الدقيق فى زززدراء وقال :

ـ هى أضعف من أن تدبر أمرا!

ـ من إذن؟

تساءل وربية ذات معنى تتجلى فى عينيه . فقال الباشا :

ـ الأمر ليس بالوضوح الذى تظنه، قد تتسلل من السراى تعليمات معينة، قد يمرح جواسيس الإنجليز ويعيثون فسادا، ولكن يخيل إلى أن المد بدأ طبيعيا جدا ثم انتهز النهازون الفرص . .

وبغتة ثارت المخاوف الراسبة فى أعماقه فزلزلت قلبه فتساءل :

ـ وماذا عن مصير المعركة؟

عاد الباشا إلى العبث بشاربه الفضى، ورفع عينيه إلى السقف التى تضئ أركانه الأربعة أنوار متوارية وراء أجنحة مذهبة ثم أعادها إلى وجه الشاب وهما تعكسان غموضا وكآبة دون أن ينبس، فقال عيسى مطاردا القلق الذى يعذبه :

ـ الويل لمن تسول له نفسه العبث بجهادنا!

فلم يبد الحماس فى وجه الباشا ولا التفاؤل واكتفى بأن قال :

ـ هذا يوم خطير له ما بعده . .

فقال عيسى بصوت فاتر منهزم :

ـ للمرة الثانية فى هذا اليوم أتذكر قول الشيخ عبد التواب السلهوبى اثر المعاهدة : «انتهينا والأمر لله» . .

فابتسم الباشا قائلا :

ـ إننا لا ننتهى أبدا ، فقد نسقط ولكننا نعود أقوى مما كنا . .

ورن التليفون . وكان المتحدث حرم الباشا من الدور الأعلى . وتجلى الاهتمام فى وجه الباشا إلى أقصى حد . وأعاد السماعة وهو يقول :

ـ أعلنت الأحكام العرفية . .

ومضت فترة ذهول حتى قطعها عيسى مغمغما :

ـ لعلها ضرورة للقبض على المجرمين . .

لكنه رأى الباشا غارقًا فى التفكير الحزين فاستدرك متأسفا :

ـ أحكام عرفية فى عهدنا ! . . يا له من حدث مؤسف !

فقال الباشا :

ـ وهى لم تعلن من أجل عهدنا !

٣

قال عيسى :

ـ صـــدر قـــرار بنقلى من وظيـــفـــة مـــدير مكتب الوزير إلى المحفوظات!

رفعت إليه أمه وجها نحيلا يشبه وجهه لدرجة كبيرة وبخاصة فى هيئته المثلثة ولكنه كثير الغضون، وللشيخوخة فى عينيه وفمه ولحييه معاقل، ثم قالت :

ـ ليست المرة الأولى، لا تحزن، ستعود إلى ما كنت وأحسن، وربنا يصلح الحال.

كانا يقعدان فى حجرة الجلوس ذات الشرفة المطلة على شارع حليم بالدقى.

وكان زجاج الشرفة العريض مغلقا دفعا للبرد وأغصان صفصافة تصعد وتهبط خلفه فى حركة وانية وامتدت وراء ذلك السحب وتكاثف وتجهمت كالسياسة. وكانت الوزارة قد أقيلت فأقصته الوزارة الجديدة فيمن أقصت من موظفين عن الوظائف

الرئيسية وبخاصة من كانت لهم علاقة بمعركة القنال وتعد هذه الأحداث عادية أو شبه عادية عند الأم لكثرة حدوثها. وهى لا تصدمها صدمة الأس لأنها ألفت أن يعقب المد جزر فى صالح ابنها المحبوب. ورغم شيخوختها وأميتها فهى تتابع الحياة السياسية وتدرك من أمورها ما يسمح به موقف عيسى وما يؤثر فى حياته جذبا ودفعا. هى به فخور وتؤمن بكل كلمة يقولها. وتعجب بما حقق من نجاح فاق الخيال، خيالها وخيال المرحوم والده الذى عاش ومات موظفا صغيرا مغمورا. عيسى يشق طريقه رغم شلالات السياسة وزوابعها يغطس أحيانا حتى يظن به الغرق ولكنه يقب محرزا درجة جديدة من التفوق. وهذا المسكن الجميل بالدقى آية على نجاحه وصموده، وأثاثه متعة تبهر البصر، وفى مناسبات غير نادرة يشرفه بالزيارة باشوات ووزراء وتتساءل المرأة وأصابعها المتحجرة تقدس الله على حبات المسبحة الحجازية.

أما لهذه الحال من نهاية تستقر فيها على خير ؟!. وهل هى وليدة ظروف معقدة عسيرة على الفهم أو هى إصابات نافذة لأعين شريرة؟!.

وقال عيسى فى فتور:

ـ من العجيب أننا لا نكاد نستقر فى الحكم عاما حتى يقذف بنا خارجه أربعا، ونحن نحن الحكام الشرعيون ولا حكام شرعيين غيرنا فى البلد..

فقالت بإيمان وإصرار :

ـ المهم الصحة والعافية .

فابتسم ابتسامة ساخرة مريرة ولكنه لم يشأ أن يعلن عن مرارته . وعلى العكس من ذلك قال بلهجة ذات دلالة :

ـ المهم أن أنتهز فرصة العزلة لأعنى بشئونى الخاصة .

فاختلجت عيناها الكليلتان فى اهتمام وقالت بارتياح صاف لأول مرة :

ـ نعم . تعجبنى . آن لك أن تتزوج ، فتاتك في الانتظار ، وأبوها العظيم لم يضن بموافقته .

فضحك متسائلا :

ـ ألم يكن الأجمل أن أتزوج وأنا متمتع بالجاه والسلطان؟!

فابتسمت عن طاقم لاح بريقه كياسمينة منسية فى حديقة اقتلعت أشجارها وقالت .

ـ مركزك كبير ، وهم يعلمون انك مرشح لأعلى المناصب ، وعلى بك سليمان يفهم الأمور جيدا ، ثم إنه قريبك . وكان يحب المرحوم والدك أكثر من أى شئ فى العالم .

هذا كله حق . على بك سليمان ابن خال والده . وأسرته تمثل الغصن المورق فى شجرة أسرته الجرداء ، غنى من سلالة غنية . ومستشار خطير فضلا عن أنه من رجال السراى . وعندما يدعم

نفسه بمصاهرته سيجد فى مرفئه استقرارا إذا عبثت عواصف السياسة بقاربه. الخسائر التى تجيئه من الحزب أطول عمرا من مكاسبه. وسلوى فتاة ممتازة حقا، لا وجه للمقارنة بينها وبين ابنة عمه التى سعت أسرتها طويلا لتزويجها منه. وأم سلوى امرأة ممتازة أيضا وهى ميالة للمحافظة على ندرة ذلك فى طبقتها. ومن حسن حظه أنها حسنة الظن جدا بمستقبله حتى تخيلته وزيرا أقرب مما يتصور. وعندما فاتحها فى مطلب زواجه من كريمتها صارحته قائلة إنها لا يهمها المال ولكن يهمها المركز، أو ليست الدرجة الثانية امتيازا حقيقيا لشاب فى الثلاثين من عمره؟. وهى لها تقدير خاص للشبان المتعلمين في الخارج، وهو وإن لم يتعلم فى الخارج إلا أنه خدم عاما فى سفارة لندن. وسافر ملحقا بسكرتارية وفد المفاوضات. وطاب له أن يستحضر صورة سلوى بجمالها البلقانى المغرى كالكريم شانتى، واعتدها منه من الله أنها ليست من فتيات النوادى ولا من معتنقات فلسفة العصر. وقال لوالدته:

ـ تصورى أننى لم أكن رأيتها منذ الصغر!

ـ هذا تقصير منك. انهماكك فى العمل ليس بالعذر الكافى. فمن كان له قريب كعلى بك سليمان وجب عليه أن يوثق علاقته به..

ـ كنت ألقاه فى الخارج. لم أكن أفكر فى الزواج..

وهو قد طلب يدها من والدها وليس له عن صورتها إلا فكرة غامضة غاية الغموض، ولكنه وجدها آية وسرعان ما أحبها من كل قلبه. وتهيأ لاختيار الألفاظ المناسبة للإفصاح عن عواطفه الجديدة أمام أمه. ولكن دخلت أم شلبى لتعلن عن حضور حسن ابن عمه لزيارته. وتجاذبت قلبه عواطف متناقضة ولكن غلب عليه النفور الخليق بمن يكابد حسرات الهزيمة.

وقدم حسن على الدباغ متطلق الأسارير. ربعة متين البنيان. مربع الرأس عميق الملامح، عريض الذقن، ويمتاز بعينين صافيتين ذكيتين وأنف حاد مدبب. قبل يد امرأة عمه وصافح عيسى بحرارة لم تخفف من نفوره ثم جلس إلى جانبه وهو يطلب الشاى. هو على وجه التقريب يماثل عيسى عمرا، غير أنه فى الدرجة الخامسة على حين دفعت السياسة عيسى إلى الدرجة الثانية، ومع أنه من حملة بكالوريوس التجارة إلا أنه لم يجد عملا إلا فى القرعة العسكرية. وسألته أم عيسى:

ـ كيف حالكم؟

ـ بخير، أمى بخير وأختى بخير..

ازداد عيسى نفورا عند ذكر الأخت لا لشئ كريه فيها ولكن لكونها أخت هذا الغريم والمنافس القديم. كانا متنافسي ومتلازمين وتبادلا عواطف حادة مؤلمة. السياسة وحدها التى حسمت ما بينهما من أسباب التنازع فرفعت عيسى إلى مركزه المرموق على

حين تدرج حسن ببطء فى طريقه الوعر. وفترت العلاقات بعض الشيء ورسبت العواطف فى الأعماق ولكن حسن لم ينقطع عن ابن عمه أبدا بل تمنى لو يزوجه من أخته. ومن عجب أن حسن فكر جادا فى الذهاب إلى قريبه على بك سليمان ليطلب منه يد ابنته عقب عيسى بأيام. وضحك عيسى ازدراء عندما نمى إليه الخبر وقال لنفسه «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه» ولكنه كان يضمر له إعجابا رغم نفوره منه لقوة شخصيته ووفرة ذكائه. وقال حسن بأريحية:

ـ سمعت عن نقلك إلى المحفوظات، لا تخزن، أنت رجل مخلوق للشدائد. فدخلت ازم فى الحديث قائلة بحماس:

ـ لا داعى للحزن، هذا ما أقوله دائما، وهؤلاء الناس لماذا يتركون الكبار وينتقمون من الأنبياء!!

وتعقد عيسى بمواساة حسن فقال باعتزاز:

ـ نحن قوم اعتدنا السجن والضرب فما أهون عقاب اليوم.

ومضى حسن يرشف الشاى فى سعادة وهو يبتسم ويقول بلهجة تنذر بالهجوم.

ـ أنتم تسجنون وتضربون حقا ولكن الآخرين يتاجرون..

وأدرك عيسى من يعنيهم بقوله «الآخرين» فتحفز لمعركة. وغادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب، وقال عيسى منذرا:

ـ أنت تعلم بمنزلة الآخرين فى نفسى فحذار!

فقال حسن بتحد باسم:

ـ إن كل شئ ينهار بسرعة، ومن لخير أن ندعه ينهار، هذا القديم كله يجب أن يجتث من جذوره!

فتساءل عيسى فى حدة:

ـ وقضيتنا الوطنية من يبقى لها؟

ـ أتظن أن هؤلاء الشيوخ المخرفين الفاسدين هم الذين سيحلونها؟

ـ أنت لا تستطيع أن تراهم على حقيقتهم..

ـ الحقيقة أننى أراهم على حقيقتهم..

ـ أنت تردد باستمرار أقوال الصحف المعادية!

فقال بثقة مثيرة للحنق:

ـ أنا لا أومن إلا بالواقع، وعلى الشباب أن يعتمد على نفسه!

فدارى عيسى حنقه قائلا:

ـ دعوة هدم خطيرة، لولا الخونة لأوقفنا الملك عند حدوده الدستورية ولحققنا الاستقلال..

أتى حسن على القدح وابتسم بغية تلطيف الجو ثم قال برقة:

ـ أنت رجل مخلص وإخلاصك يحمللك على الولاء لأناس لا يستحقون الولاء. صدقنى لقد عم الفساد، لا هم لأحد من أصحاب السلطات اليوم إلا الإثراء المحرم، إننا نستنشق الفساد مع الهواء، فكيف تأمل أن يخرج من المستنقع أمل حقيقى لنا؟!

وترامى إليهما صوت الأم وهى تكبر، وخفف عيسى من حدته مراعاة للضيافة. ولم تكن قوة تستطيع أن تحمله على التسليم بما يقول غريمه ولو معاندة له ولكن اجتاحه حزن عميق. الدنيا تتغير وآلهته يتفتتون بين يديه. وحسن من جانبه غير الحديث فتكلم عن خسائر الحريق وتقدير التعويضات وموقف الإنجليز والاعتقالات المستمرة، ولكن ما لبث أن عاد يقول:

ـ دلنى على ركن واحد لم ينضج بالفساد؟

ما أبغض أفكاره. محنق حاد مثير للكدر. وحادثة قديمة برزت فى وعيه بلا مناسبة. وكان بصحبة أبيه فى زيارة لبيت على بك سليمان فوجد نفسه وحيدا فى حجرة السفر، ولمح قطعة شيكولاتة فى درج نصف مفتوح فدس يده فسرقها. حدث ذلك منذ حوالى ربع قرن فيا للذكرى. أما حسن فلا يكف عن الهجوم كعادته دائما فتبا له. وسأله بفتور:

ـ ماذا تريدون؟

ـ دما جديدا طاهر.

ـ من أين؟

فضحك عن أسنان لؤلؤية صارخة بالصحة والعافية وقال:

ـ البلد لم يمت بعد...

فتساءل عيسى بحدة:

ـ دلنى على ركن يستحق الثقة غير حزبنا؟!

رماه بنظرة ساخرة دو أن ينبس. وعلا صوت العجوز فى الخارج بسيل من الأدعية، فعاد عيسى يتساءل:

ـ ما العمل إذن؟

ـ نؤيد الشيطان رذا تطوع لإنقاذ السفينة.

ـ لكن الشيطان لا يتطوع لإنقاذ شىء...

ونظر فى غير اعكتراث إلى السماء الغارقة فى الدكنة ليريح قلبه من نظرات خصمه فقال حسن:

ـ يجب أن يذهب الإنجليز والملك والأحزاب وأن نبدأ من جديد.

فضحك عيسى فى مرارة ثم قال:

ـ حريق القاهرة أثبت أن الخونة أقوى من الحكومة والشعب معا.

ورجعت الأم وهى تقول:

ـ ألا يوجد حديث آخر؟!

بدا خداها محتقنين وشبه متورمين. واتخذت مجلسها الابق وهى تسأل حسن:

ـ وأنت متى تتزوج؟

ـ وتذكر عيسى نقدمه الجرىء لخطبة سلوى فاشتد امتعاضه. فقير لكنه جرىء وطمع ولا شك فى مالها كآخر وسيلة لانتشاله من متاعبه. أما حسن فأجاب:

ـ الأحداث الهامة تقع فجأة وبلا سابق إنذار...

ـ وأمك متى نراها؟

ـ آه مسكنكم بعيد عن روض الفرج ولكنها ستجىء حتما.

ثم سزل عيسى وهو يتهيأ للقيام:

ـ أين تذهب هذا المساء؟

فأجاب بتحد ولكن فى هدوء:

ـ إلى النادى...

فنهض حسن وهو يقول:

ـ أستودعك الله... وإلى اللقاء...

٤

يوم الخطبة فى قصر على بك سليمان بهليوبوليس يوم يستحق الذكر. لم يكن ثمة فاصل حقيقى بين الجنسين فقد احتلا بهوين متصلين بمدخل مشترك يعد فى ذاته تحفة زخرفية. وأم عيسى وسلفتا أم حسن جلستا بين المدعوات فى البهو الأحمر، وجلس فى البهو الأخضر ـ بين المدعوين من الأهل والأقارب ـ أصدقاء عيسى الحميمون سمير عبد الباقى وعباس صديق إبراهيم خيرت وابن عمه حسن، على حين استقبل البهو الكبير المتصل بالمدخل كبار المدعوين من أصدقاء على بك سليمان وجملتهم من رجال السراى أو من رجال القضاء، كذلك معارف عيسى من رجال الحزب. وانكمشت أم عيسى وسلفتها تحت غمرة الأنوار الساطعة. فهذه الدنيا لا ينتميان إليها بسبب. ورغم الفستان النفيس التى تزينت به أم عيسى، ورغم وقار الشيخوخة. رغم ضعف الحواس وبخاصة البصر والسمع الذى أوهن انفعالها بالجو، رغم ذلك كله فقط لاذت بالانطواء ولم تحاول فى مجلسها أن تمارس أى مظهر خليق بأم العريس. وعنيت سوسن هانم حرم

على بك بمؤانستها عناية خاصة لتذهب عنها الوحشة فهى تحبها من قديم أو مذ كانت عروسا لعلى بك سليمان، وحبها للعجوز كان ضمن الأسباب التى جعلتها توافق على قبول عيسى. وسوسن هانم فى أواسط الحلقة الخامسة ولكن لم يبق من جمالها إلا مسحة بسبب مرض الكبد المزمن وسوء حالة الكلية، ولكن طولها وعرضها وبهاءها الفطرى أورثتها مزايا باهرة لا تبيد. وجعلت تقولا لأم عيسى فى لطف بديع:

ـ لا تنسى أنك فى بيتك...

وهجم حسن على أصدقاء عيسى فى مناقشة سياسية رغم معرفته البسيطة بهم. وتابعه عيسى من بعيد بعض الوقت وكان يظن أنه سيحجم عن شهود الحفل فعجب لشأنه واقتنع بأنه يستطيع أن يتحدى الزمن نفسه إذا أراد. ولكن عيسى لم يستقر بمكان.

وخص مدعويه من الحزب بأخص مجاملاته. ولم يكن الجو فى البهو الكبير يخلو من حرج فقد واجه رجال الحزب رجال السراى، ومع أن البعض ربطت بينهم مودات قديمة إلا أن الأغلبية من الطرفين تجاهلت بعضها البعض، ولعب على بك سليمان دوره بكل لباقة ورحب بالجميع على قدم المساواة رغم أنه هو نفسه من رجال السراى. كان محاميا وسطا حتى رشحته السراى لوظيفة مستشار فى إحدى الحركات القضائية ولم يعرف بلون حزبى ثابت ولكنه اكتسى بشتى الألوان كقوس قزح ثم انضم إلى

حزب الاتحاد فى الوقت المناسب وسار فى الركب الملكى حتى اعتلى أسمى مركز فى القضاء، ومع أنه يقترب من الستين إلا أنه يتمتع بصحة وحيوية نادرتين. طويل القامة فى استقامة رياضية بديعة وعيناه السوداوان تحت حاجبية الغزيرين الأسودين يهبانه جاذبية لا تقاوم. ودعم حياته فى مطلعها بمصاهرة آل همت ـ أسرة سوسن هانم ـ فمد رقعة أرضه وأصل الأستقراطية فى ذريته، وراح يضحك ويداعب مدعوية جميعا قائلا:

ـ من تفرقهم السياسة فلتجمعهم الأفراح!

وهمس شكرى باشا عبد الحليم فى أذن عيسى:

ـ ألا ترى أن قريبك يعترف فى دعابته بأن رجال الملك ـ والملك بالتالى ـ ليسوا فوق الأحزاب؟!

ومال الشيخ عبد الستار السلهوبى برأسه نحوهما ليسمع الهمس فى اللحظة المناسبة ثم ضحك ضحكة صامتة وهمس بدوره:

ـ إذن فلتكن الأحزاب فوق الملك!

ومد بصره فى حذر إلى صورة الملك المعلقة بالجدار الأوسط للبهو فابتسم عيسى قائلا:

ـ لا تخف فإن اللعنات تنصب عليه فى المقاهى جهرة...

ولكن مرارة السياسة ذابت فى شربات الحفل. عيسى نفسه

وهو مخلوق سياسى قبل كل شىء أسلم نفسه بكليته إلى لذة الوجدان. ازين كأحسن ما يكون، وتجلى وجهه ذو الهيئة المثلثة فى أنفى مظهر، وصفت عيناه المستديرتان. ولم تكن فرحته بمصاهرة المال والجاه لتذكر إلى فرحة قلبه بعروسه، وأمله الصادق فى حياة هانئة حقا وغد مفعم بالمسرات ومستقبل واعد بمجد حقيقى. وتناسى حريق القاهرة وإقالة الوزارة ونقله إلى المحفوظات والفتور المحزن الذى اجتاح الحماس الشعبى والتقاعس الذى طوق الجهات الرسمية نحو الأمانى الوطنية والكآبة الدكناء التى خضبت الآفاق رغم انتشاء الحياة بمباهج الربيع. وكان عليه ألا يستقر فى مكان أكثر مما يجب الأمر الذى وافق رأسه المشتت بالانفعال. ومضى إلى سوسن هانم فتفقدا البوفيه معا وألقيا نظرة أخيرة على صورته المكتملة الزاخرة بالألوان. ثم قصد إلى البهو الأخضر فجلس بين أصدقائه الأعزاء الذين ود لو يبقى بينهم حتى تدعوه اللحظة الحاسمة. وقال إبراهيم خيرت وهو يسدد النظر إلى البهو الأحمر:

ـ ما أكثر اللحوم البيضاء وما أجملها!...

فتساءل عباس صديق مازحا:

ـ هل تقصد الحاجة أم عيسى؟

ونظر عيسى إلى أمه فى فستانها النفيس المحتشم فارتاح إلى تفوقها على أم حسن فى الوقار رغم وسامة الأخيرة، وشكا عباس صديق إليه حسن قائلا:

ـ ابن عمك أعنف من حريق القاهرة!

فضحك حسن طويلا، وعاد عباس يقول له بنبرة الناصح:

ـ تزوج أنت أيضا وسوف تقتنع بأن الحزبية ليست أسوأ الأشياء...

وإذا بسمير عبد الباقى يقول:

ـ الحالة مضطربة جدا!

فأدرك الجميع أنه يتكلم فى السياسة، وقال عيسى:

ـ هذا أمر محقق...

فقال سمير بتوكيد:

ـ لكنها مضطربة أكثر من الظاهر المعروف...

فقال حسن ساخرا:

ـ ربنا يكرمك...!

ـ يقال أن الملك سيستأجر جنودا مرتزقة لأنه لم يعد يثق بأحد!

فقال عباس صديق ضاحكا:

ـ ليس أدل على سوء الحال من قول أحد الأحرار الدستوريين إنه يفضل عودة الوفد على تفسخ الوضع الراهن!

وقال حسن بإصرار:

ـ أسأل الله المزيد من الاضطراب والتفسخ . . .

دعى عيسى إلى الداخل لإعلان الخطبة فتعلقت به الأبصار وساد الصمت . وصمت حسن أثقل الصمت . وانطلقت زغرودة سمعها كل من فى القصر . وطافت سلوى بين أمها وخطيبها بجميع الحاضرين قبل أن تتخذ مجلسها المجلل بالورود فى البهو الأحمر . جميلة حقا . عيون أبيها ركبت فى وجه بدرى شفاف البياض . واقتبست من أمها طولها الفارع البهى وعنقها الطويل النحيل ولكن انبعثت من عينيها نظرة رطيبة طيبة توحى بالوداعة والخلو التام تقريبا من الذكاء والحرارة . وجعلت تلتفت نحو أمها بصفة مستمرة كأنها تستلهمها الإرشاد والمعونة أو أنها تعانى فى أعماقها بوادر أزمة الانفصال عنها فى خوف وعدم ارتياح ، أما فستانها فقد تحدث المدعوون عنه طويلا . . .

وتواصل الحفل ففنى جميع ما اكتظ به البوفيه من الشطائر والحلوى والأشربة وأخذ المدعوون فى الانصراف محملين بعلب الحلوى ، ثم خلت حجرة الجلوس المطلة على شارع البارون بفراندا ضخمة للخطيبين وسوسن هانم . وانتشر الليل فى جو ربيعى صاف ، وامتدت عمالقة الأشجار المحدقة بالبستان مترنحة سابحة فى أمواج الضوء الساطع المتدفق من المصابيح الكهربائية وهبت نسائم مرطبة ببرودة حنونة منعشة .

وقال عيسى :

ـ إنى أعتبر اليوم غاية سعادتى .

فهمست باسمة فى حياء :

ـ أشكرك . . وأرجو أن أعرب لك عن مشاعرى عندما أجد الشجاعة الكافية .

وتفحصتهما سوسن هانم بسعادة وهو تقول :

ـ ستتم سعادتنا بزواجكما فى يوليه بإذن الله . . .

وتساءل عيسى متى يتاح له عناقها؟! ، وثمل بسعادة دسمة لحد القلق . وقال لنفسه أنه يترسم خطى على بك سليمان . وسوف يفوز فى النهاية بمركز كمركزه . ولم يكن ذاق الحب إلا مرة وهو تلميذ بالثانوية . أحب يومذاك ممرضة على محطة الترام الصباحية واندفع بجنون . ولكن والده شكمه وروضه . ها هو اليوم بعد مرور حياة غير قصيرة ، وبعد أن امتحنته الدنيا بالسجن والضرب والمطاردة والرفع والخفض ، ها هو يخطب بعد انقطاع عن رؤية خطيبته لا يقل عن عشرة أعوام ، ولكنه فى الوقت نفسه عرف الحب وأترع برحيقه ، وكان يقبض بيديه على سعادة مضمونة ، وقال لها :

ـ أنت يا عزيزتى صورة من والدتك ، ولذلك فخيالى عاجز عن تصور سعادتى .

فضحكت سوسن هانم قائلة :

ـ أرجو أن تذكر كلامك هذا للمستقبل فإنه يقال إننا ـ الحموات ـ لا نسمع الكلام الجميل إلا فى هذه المناسبة .

وضحكت سلوى ضحكة رقيقة جدا فازداد عيسى سعادة وملكته فجأة رغبة فى التباهى فسألها :

ـ ترى هل يضايقك العيش فى الخارج لو دفعتنا الظروف مستقبلا للعمل فى السلك السياسى؟

فأجابت عنها أمها قائلة :

ـ سلوى متخرجة فى المدرسة الألمانية .

فابتسم معلنا عن ارتياحه، ثم غمغم :

ـ ولتكن الحياة سعيدة، وشهدنا فى حياتنا آلاما حقيقية فلتكن سعادتنا حقيقية أيضا! . .

٥

قال عيسى لسلوى :

ـ فى حياتنا سر يجب أن تعرفيه . . .

وهما يجلسان فى الفراندا المفعمة بعبير الورد والقرنفل . والمغيب يقترب نصف مسدل الجفنين ، والشمس تسحب أهدابها من هامات القصور ، والربيع يتنفس شبابا رائقا . وهما فى خلوة خلقها اختفاء سوسن هانم إلى حين ، يشربان الليمون من دورق بللورى على ترابيزة من القش الملون . وغمغمت سلوى متسائلة :

ـ سر ؟!

فارتفع نصفه الأعلى ابتداء من حاجبيه المستقيمين كما يفعل وهو يتأهب للحديث أو للخطابة ثم قال :

ـ نعم ، تظنين أننى تقدمت لخطبتك دون سابق رؤية ، ولكننى فى الحق أحببتك حبا عظيما قبل عشرة أعوام ، كنت وقتذاك فى العاشرة وكنت أنا فى العشرين ، وكنا نقيم فى بيت والدتى بالوايلية وأنتم كنتم فى الهرم ، وكان والدك ـ المحامى وقتذاك ـ

على صلة وثيقة بأبى ويتبادلان الزيارة كثيرا، وكنت جميلة جدا كما أنت اليوم فوقعت فى غرامك، ألا تذكرين تلك الأيام؟!

فتكتمت ضحكة بالعض على باطن شفتها وقالت:

ـ قليلا، أذكر أننى رأيت صواريخ مولد النبى مرة عندكم ولكنى لا أذكر ذلك الغرام...

فضحك وهو يطوح برأسه إلى الوراء فى حركة خاصة مقلدا دون قصد أحد باشوات الحزب وقال:

ـ ولا أحد يذكر، ولكن المرحوم والدى ضبطنى مرة وأنا أحدق فيك بشغف وأخرى وأنا أقبلك!

ـ لا!

ـ نعم... قبلة بريئة تناسب طفولتك...

ـ لكنك لم تكن طفلا...

ـ لكنك كنت طفلة! ما علينا، قال لى والدى عند ذلك اجتهد وأنت تتزوجها، كن شابا لائقا بها وأنا أزوجك منها! فسزلته عن مدى اللياقة المطلوبة فقال لى إن على بك سليمان قريبه وحبيبه ولكن يجب أن تحوز القبول عند سوسن هانم، وهى غنية لا تهمها الثروة، ولكنها تريد لكريمتها شابا ناجحا، قاضيا مثلا، والحق أن كثيرين بهرهم صعودى السريع حتى صرت من كبار الموظفين بل ومن رجال السياسة فى هذه السن المبكرة ولكن أحد لم يفطن إلى البواعث الحقيقية وراء ذلك النشاط الفذ.

فبسطت بحركة رشيقة مروحة عاجية صغيرة حتى تكشف صفحتها عن صورة بطة فى الماء، وقالت فى سخرية وديعة:

ـ هذا رغم أنك لم تزرنا طوال عشرة أعوام!...

فقال جادا:

ـ لا تنسى أن والدك اختير مستشارا بعد ذلك فعمل أعواما ما بين أسيوط والإسكندرية، ولا تنسى انغماسى فى السياسة بعد ذلك...

فقالت وهى تبتسم فى دلال:

ـ وكيف عرفت أن العشرة الأعوام لم تصنع منى شيئا رديئا؟

ـ قلبى!، أنا أؤمن بشعور القلب، ولما رأيتك تضاعف إيمانى به، وعليه فخطبتنا فى ظاهرها تقليدية ولكنها تطوى فى أعماقها قصة حب وإن يكن حبا من جانب واحد...

وهمست وهى تنظر بعيدا:

ـ على أى حال لم تعد كذلك!

ضم ذقنها بين أصابع يده وأدار وجهها بلطف ومال برأسه حتى تلاقت شفتاه المشوقتان بشفتيها الرقيقتين فى نبضة متبادلة. وارتد وهو يبتسم فى سعادة حقيقية. وراح ينظر إلى مجامع أصص الزهور فى الفراندا بعينين غمرتهما العاطفة كما يغمر الضباب زجاج النافذة والقصة بعد ذلك ليست اختلافا على طول الخط.

طالما أعجب بجمالها فى ذلك العهد البعيد. وهو وإن لم يكن نسيها عشرة أعوام إلا أنه يحبها الآن حبا حقيقيا فما الضير فى سد الفجوة بكذبة بيضاء تشع حكمة وتضفى على علاقتهما جمالا ساحرا!. ولكن المحبوبة لا تريد أن تنفصل عن أمها كأن القابلة نسيت أن تقطع حبلها السرى فى حينه. وهو يتوجس من ذلك خيفة أحيانا ويتطلع برلحاح إلى اليوم الذى يتم له امتلاكها حقا، ونظرة الاسترشاد أو الاستئذان التى توليها إياها عند مقاطع الحديث تقلقه بعض الشيء. ولكن سعادته اكتسحت ذلك لكله كما تكتسح الموجة العالية نفايات الساحل ثم تتركه أملس صافيا. وفقرها المدقع فى تجارب الحياة العادية أسعده. ولعله تملق شعوره بالاستعلاء كما لذه حنينها الدائم إلى الموسيقى واطلاعها الغنى على الرحلات، وقال:

ـ حبك كنز ثمين لا يقدر بثمن، وعندما جئت لمقابلتك أول مرة سألت الله أن أقع من نفسك موقعا حسنا...

ـ كنت أراك قبل ذلك فى الصحف..

فقال بارتياح:

ـ لو توقعت ذلك فى حينه لاستعددت استعدادا أكثر عناية للتصوير..

ـ هذا لا يهم ألبتة، ولكن سمعت أيضا عن «شقاوتك» فى السياسة.. فضحك مطوحا برأسه إلى الوراء مرة أخرى على طريقة ذلك الباشا وقال:

ـ ترى ما رأيك فى ذلك؟! . . أنا صديق عتيد لهراوات البوليس وزنزانات الأقسام والرفت والمطاردة. ترى ما رأيك فى ذلك؟!

فعضت باطن شفتيها مرة أخرى وقالت:

ـ بابا يقول. . .

وسرعان ما قاطعها:

ـ لا داعى للاستشهاد ببابا فى هذا الشأن، أنا أعرف مقدما رأيه، فهو من رجال الجانب الآخر، وأنت لا تهتمين إلا بالموسيقى وكتب الرحلات؟! . . . عليك من الآن فصاعدا أن تعدى نفسك لدور زوجة الرجل السياسى بكل معنى الكلمة. .

ورجعت سوسن هانم إلى الحجرة فوقفت أمامهما وهى تقول بلهجة من يفضى بنتيجة مسعى قام به. .

ـ ليكن الأمر كما تشاء. . .

فوقف الشاب ببدلته الشار كسكين الناصعة البياض وهو يقول:

ـ شكرا يا هانم. .

ثم جلسا وهو يستطرد:

ـ ليكن الزواج إذا فى أغسطس ثم نسافر إلى أوروبا بعد ذلك مباشرة. . .

وتلاقت النظرات فى ارتياح. وغاب آخر شعاع من الشمس.
وربت عيسى على ركبتيه فجأة ثم قال مخاطبا سوسن هانم:

ـ كنت أحادث سلوى عن غرامى بها منذ عشرة أعوام!

فرفعت المرأة حاجبيها دهشة وقالت لابنتها محذرة:

ـ لا تصدقى كل شىء يا سلوى، خطيبك سياسى وأنا أدرى بهؤلاء السياسيين!

وأغرق ثلاثتهم فى الضحك...

٦

كان عيسى يتناول فطوره حين توقف الراديو عن إرساله المعتاد ليذيع بيان الجيش فى صباح ٢٣ يوليو . . .

معنى ما تقلته أذناه بادئ الأمر . ثم وثب من مجلسه ليحملق فى الراديو وهو يلعق شفتيه . وترادفت الكلمات الغربية لتصنع جملا مذهلة سرعان ما تنفجر الدهشة عند استيعاب معانيها . ودار رأسه كمن يخرج بغتة من ظلمة عمياء إلى نور باهر . وراح يتساءل ما معنى هذا! . ما معنى هذا؟! .

ومضى إلى حجرة الجلوس فجلس إلى جانب أمه وهو يقول :

ـ أنباء خطيرة جدا . .

رفعت العجوز إليه عينيها الضعيفتين فقال :

ـ الجيش يتحدى الملك!

وهضمت المرأة الخبر بعسر شديد ثم تساءلت :

ـ كأيام عرابى باشا؟!

آه . . كيف لم يرد هذا المعنى على ذهنه!؟ . حقا إنه فى نهاية من الاضطراب . وتمتم :

ـ نعم، كأيام عرابى . . .

فسألته بقلق :

ـ وهل تقوم الحرب؟

آه . . ماذا سيقع حقا!؟ . ليس فى القاهرة الآن شخصية واحدة يمكن الرجوع إليها لاستقاء الأنباء . وإذا كان هو لم يقم فى إجازة فما ذلك إلا لأنه أجل إجازته لحين سفره إلى الخارج .

ـ كلا، للجيش مطالب وسوف تتحقق مطالبه، هذا كل ما فى الأمر . . وسافر إلى الإسكندرية . ها هو الطاغية يتلقى صفعه فولاذية . لتكن صفعة بقوة طغيانه . فلتكن قاضية . وليحترق باجترار آثامه . انظر إلى عواقب غيك وحماقتك . ولكن أين تقف هذه الحركة؟! وما الدور الذى سيلعبه الحزب؟ الأمل أحيانا يسكره، وأحيانا يدوخه إحساس كالذى يخالج الكلاب قبيل الزلازل . ووجد عبد الحليم باشا شكرى فى أثنيوس مرتديا بدلة بيضاء من الحرير الطبيعى مغروزا فى عروة جاكتتها وردة حمراء قانية، وأمامه قدح من البيرة الاستوت لم يبق فيها إلا رغوة كاليود، وقال له الباشا وهو يضيق عينيه فى فتور :

ـ دعك من مطالب الجيش، الحركة أكبر من ذلك، المطالب

يمكن أن تتحقق اليوم ثم يشنق مقدموها غدا، كلا يا أستاذ، ولكن من الصعب جدا التكهن بما وراء ذلك . . .

ـ أليس عند سعادتك أخبار؟

ـ الحوادث أسرع من التنبؤ، كان يجلس مكانك منذ ساعة مستر جودوين الصحفى الإنجليزى وقد أكد لى أن الملك قد انتهى . . .

فاستكال للدهشة الطاغية دقيقة ثم تساءل :

ـ أليس لنا علاقة بهذا الأمر؟

ـ لا يمكن الحزم بشىء من هؤلاء الضباط؟ ولا تنس أن زعماءنا فى الخارج .

ـ قد لا يكون لسفرهم علاقة بالحركة .

وأبى وجهه أن يتفاءل واكتفى بأن قال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قد!

وأكثرهم من الكلام وأعاداه دون أن يضيفا إليه جديدا ولنه انقلب غاية فى ذاته وجدا فيها متنفسا عن القلق .

وفى فيللته بسيدى بشر استلقى على بك سليمان على كرسى خيزران هزاز، شاحب الوجه، مغضن الجبين بعبوسة ثابتة، وفى عينيه نظرة مريضة خسرت جمالها الطبيعى وكبرياءها المأثور . ولما رآه مقبلا تطلع إليه باهتمام شديد وسزله بلهفة :

ـ ما وراءك؟

وجلس عيسى وهو يشعر بثقل نظرات الرجل وزوجه وكريمته ثم قال بهدوء ظاهرى واعتزاز خفى بما سيضيفه إلى الموقف من جديد:

ـ الملك انتهى.

وانطفأ آخر قبس فى عينى الرجل، وألقى نظرة عليلة على البحر المعربد من خلال الشرفة، ثم تساءل:

ـ وأنت.. أعنى أنتم.. هل أنتم موافقون؟

استمتع بلحظة اعتزاز كاذب تأرجحت فوق جرح أليم، وتمتم:

ـ الملك عدونا التقليدى.

اعتدل البك فى جلسته وأله:

ـ هل للحزب علاقة بما يحدث؟

ود لو يستطيع أن يجيب بالإيجاب أمام الأعين المحدقة ولكنه قال وهو يدارى تعاسته:

ـ لا أدرى عن هذا شيئا.

ـ لكنك تستطيع أن تدرى بلا شك.

ـ ولا أحد ممن قابلتهم يدرى، وزعماؤنا الحقيقيون فى الخارج كما تعلم سعادتك.

فنفخ الرجل بضيق شديد وقال :

ـ نسينا بسرعة درس عرابى وعما قليل سيزحف الإنجليز .

فتساءل عيسى قلقا :

ـ هل من أنباء عن ذلك؟

فلوح الرجل بيده ساخطا على حين سألته سوسن هانم :

ـ ألا يحسن أن نذهب إلى العزبة؟

فأجابها بفتور :

ـ لا أحد يدرى ما هو الأحسن .

وانطلقت الأحداث حتى غادر الملِ؛ البلاد، وشهد عيسى ذلك فى الإسكندرية ورأى بعينيه تحركات الجيش، كما رأى المظاهرات الصاخبة . وعانى طوال الوقت من عواطف متضاربة أطاحت به فى دوامة ما لها من قرار . شعر بفرحة كبرى عزت على التصديق والتأمل، وشفت صدره من آلام المقت المكبوت . ولكن هذه الفرحة لم تنطلق إلى ما لا نهاية، وإنما ارتضمت بسحائب دكناء كدرت بعض الشيء صفاءها . أهو رد الفعل الطبيعى لكل شعور عنيف! ، أم هو رثاء تجود به النفس المطمئنة أمام جنة غريمها الجبار؟ ، أم أن تحقيق هذف من أهدافنا الكبرى يعنى فى الوقت ذاته زوال سبب من أسباب حماسنا للوجود؟ ، أم أنه عز عليه أن يتحقق هذا النصر الكبير من غير أن يكون لحزبه الفضل الأول فيه؟

وهكذا وجد زوار عبد الحليم باشا شكرى فى قصره بزيزنيا . كانوا مزيجا من السرور والوجوم والقلق . وراح الباشا يقول :

ـ سبحان من له الدوام .

وبطريقته الخطابية فى الحديث قال الشيخ عبد الستار السلهوبى عضو الشيوخ :

ـ انتهى فاروق ولكننا نريد أن نطمئن على أنفسنا .

وتمطت موجة من الضحك العصبى الخالى من السرور الحقيقى غير أن عيسى تساءل وهو يجلس إلى جانب أصدقائه سمير عبد الباقى وعباس صديق وإبراهيم خيرت :

ـ ماذا عن المستقبل؟

فأجابه عبد الحليم باشا شكرى متجاهلا الغرض الحقيقى من السؤال :

ـ سيكون خيرا من الماضى بلا ريب!

فقال له الشيخ عبد الستار السلهوبى :

ـ لعله يسزل عن مستقبلنا نحن؟ .

فقال الباشا بوجه غير معبر كما يجدر بسياسى عتيق :

ـ سيكون لنا دورنا بغير جدال .

واهتز جذع الشيخ عبد الستار كالمقرئ فى الفترات المتخللة للتلاوة ثم قال بعنف :

ـ هذه الحركة ليست فى صالحنا . . إنى أشم الخطر على بعد آلاف الأميال، يوم ألغيت المعاهدة خسرنا الملك والإنجليز، واليوم سنخسر كل شىء .

فقال سمير عبد الباقى :

ـ نحن آخر من يتوقع الخطر أو هذا ما ينبغى .

وقال إبراهيم خيرت :

ـ إن ما حدث اليوم هو ما كنا نفعله لو ملكنا القوة اللازمة .

فقال الشيخ عبد الستار ساخرا :

ـ ولكننا لم نفعله يا سى عمر !

وتجمع الماضى فى خيال عيسى كقبضة عنيفة مفعمة بالجلال والحزن . وحدثه قلبه بأن ذلك الماضى يتبلور الآن فى صورة فقاعة لن تلبث أن تنفجر . وإن وجها جديدا من الحياة يسفر عن صفحته رويدا رويدا حافلا بالجدة والغرابة . وأن بوسعه أن يتعرف على هذا الوجه لأنه سبق له أن لمحه هنا أو هناك، ولكن من أين لهذا الوجه أن يتعرف عليه هو داخل الفقاعة المتفجرة؟ ثم استراحت عيناه عند صور فنية معلقة على الجدار فوق المدفأة الباردة، وتعرض زنجية غليظة الشفتين جاحظة العينين فى غير دمامة، تحدق فى وجهه بنظرة حسية وقحة ناطقة بالإغراء والتحدى . . .

٧

وشحن الجو باحتمالات شتى متناقضة ولكنها اتفقت جميعا على انتزاع الطمأنينة من نفسه فكابد حياته بأعصاب عارية، وبات تأجيل زواجه أمرا محتوما حتى تستقر الأرض تحت قدميه وحتى يسترد حموه وعيه. وانتصبت علامات الاستفهام أمام عينيه وأعين أصحابه كالرايات السود على السواحل عند هياج البحر ومضغوا الشائعات كالعلقم. ثم علم أن حسن ابن عمه اختير لوظيفة مهمة وأن الباب انفتح أمامه إلى مراكز أهم وأخطر مما قطع بأنه من أهل الدنيا الجديدة وقد صعقه الخبر أشد مما صعقته الأحداث، ولبث مدة لا يدرى كيف يبلغه أمه ولكن العجوز لم تفهم الأمور على حقيقتها وقالت ببلاهة:

ـ سيأتى دورك، لا تحزن، أنت تستحق كل خير.

وقال لنفسه ما أجمل أن يعيش الإنسان بعيدا عن منطقة الوعى! ثم أعلن عن نظام التطهير. وقرأة بانتباه جنونى ومرارة ويأس. سيدركه الدمار الذى يحيق بالأحزاب والزعماء ستقتلع

الجذور التى تثبته بأرضه جذرا بعد جذر. وما أغرب ما يقع اليوم مما لم يكن يتخيله أحد. ها هو صديقه إبراهيم خيرت المحامى وعضو مجلس النواب السابق يتحمس للثورة بقلمه فى أكثر من صحيفة كأنه ضابط من رجالها! ويهاجم الأحزاب ـ وحزبه ضمنها طبعا ـ والعهد البائد كأنما لم يكن أحد رجاله. وعباس صديق آمن مطمئن غير مكترث للأحداث إذا وجد ظهرا يحميه فى العهد الجديد بل واصل طموحه إلى الترقى بأمل أقوى مما كان. سمير عبد الباقى وحده الذى شاركه القلق والخوف والمصير، وهو شاب نحيل رقيق قمحى البشرة تشع من عينيه الخضراوين نظرة حالمة فوجد عنده بعض العزاء، وسأله:

ـ كيف تتصور أن يكون مصيرا؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

ـ الطرد أقل ما ينتظرنا.

فسزله بحلق جاف:

ـ ما عسى أن نفعل؟

ـ معاش لا قيمة له ولكننا قد نجد عملا فى شركة.

ـ ترى هل يتيسر لنا ذلك، وهل نجد السجاعة لنبدأ من أول الطريق من جديد؟!

وهز الآخر رأسا لا يعد الشيب نادرة فى سواده وغمغم بلا روح:

ـ عسى أن تكذب الأحداث ظنوننا .

وتراكمت الشكاوى فى لجنة التطهير كالزبالة . وعلم عيسى أن كثيرا منها يستهدف القضاء عليه . ولم يستغرب ذلك بطبيعة الحال فإن أعداءه من المسئولين فى الوزارة أكثر من أصدقائه ، وأضاف إليهم الحاقدين والحاسدين والذين يتطوعون للشر عند أى مناسبة . بل من هؤلاء وأولئك من تحداه علنا فى الوزارة بلا سبب ، ومن عرض به ساخرا وجها لوجه ، وحتى بعض مرءوسيه استباح لنفسه الاستهانة به حتى انقلبت الوزارة ركنا من الجحيم .

ثم استدع للمثول أمام لجنة التطهير . وكانت اللجنة تجلس وراء مائدة خضراء امتدت فى عرض الحجرة بمكتب المستشار القانونى للوزارة ، واحتلت السكرتارية الجناح الأيمن ، على حين دعى هو للجلوس أمام الأعضاء فى الناحية المقابلة من المائدة ، لمح مكان صورة الملك أخرى تحمل اسم الله ، ونقل بصره بين الوجوه فعرف فى ممثل مجلس الدولة زميلا قديما فى لجنة الطلبة كاد يهلك معه يوما فى مظاهرة أمام بيت الأمة فبل منظره ريقه ولكن الأعين جعلت تنظر إليه برزانة أو تلقى على الأضابير نظرات ولم يبد على أحد منهم أنه زامله يوما ما بالرغم من وجود مراقب المستخدمين ومدير الإدارة العامة بينهم . وكان شخصه يهز كثيرين من أعضاء اللجنة فى الماضى حتى وحزبه خارج الحكم ولكن حلت الحيدة الباردة محل العرفان والعاطفة وسرى فى جو الحجرة الكبيرة

العالية السقف ذات الجدران القاتمة المشبعة برائحة السجائر العطنة روح رهبة ثلجية، ومن خلال زجاج الباب المغلق انقضت حدأة على الشرفة الخارجية ثم ارتفعت بسرعة خاطفة وهى تطلق صوتا كالنواح.

وحدجه الرئيس بنظرة طويلة من نظارته الكحيلة المذهبة وقال:

ـ أرجو أن تطمئن كل الأطمئنان إلى عدالتنا فهى لا تبتغى إلا وجه الحق وحده.

فقال بهدوء باسم ليستر يأسه:

ـ لا شك عندى فى ذلك.

ـ وأحب أن تعلم أن المهمة التى كلفنا بها غايتها المصلحة العامة لا الانتقام ولا أى غرض آخر.

فقال وهو يهبط درجات جديدة فى أحضان اليأس:

ـ لا شك عندى فى ذلك أيضا.

وصدرت إشارة إلى السكرتارية فتليت العرائض تباعا. بعضها موجه من موظفين والبعض الآخر من عمد. وانقلب صوت قارئ العرائض رثيبا كملقن الأموات، وأغمض عيسى عينيه ابتغاء تركيز أشد ولكن التهم جميعا انصبت على تعيين العمد بالحزبية والهدايا فتشتت فى التكرار تركيزه وذاب فى الظلمة التى

اختارها. ومن خلال ضباب أحمر انغرزت فى أذنيه السهام ورغم الجهد المبذول للتركيز اعترضته الذاكرة بصورة قديمة جدا مخضلة كأعشاب الطفولة اليانعة وهو عائد من ملعب كرة فى الخلاء المحدق بالوايلية فى يوم انهل مطره كالسيل فلم يجد ما يحتمى به من انفعال السماء إلا أسفل عربة زبالة. وتساءل عن معنى هذا كله. وفتح عينيه فرأى الوجوه وهى تتموج، وللحظة قصيرة خيل إليه أن فردة شارب المستشار اليسرى موصولة بفردة شارب ممثل مجلس الدولة اليمنى، وسئل عن رأيه. أى رأى؟! وقال بحدة قاهرة:

ـ كلام فارغ، أريد دليلا واحدا.

وامتلأ قوة ولكنه سرعان ما باخ وتهاوى كورقة خضار ذابلة صفراء. قال الرئيس:

ـ كان الوزير يعتمد ترشيحاتك فأنت أول مسئول.

ـ كان ذلك ضمن واجباتى وقد أديته بما يرضى ضميرى.

ـ هل من سبب غير الحزبية يمكن أن يفسر لنا عزل وتعيين العمد؟

فقال وهو يحاول أن يسيطر على لهانة وتهدجه:

ـ لتكن الحزبية هى السبب ألم تكن من مقومات حياتنا الماضية؟

ـ هل أنت مقتنع بصحة تصرفاتك؟

ـ أرى أنها كانت طبيعة جدا .

فتساءل الرجل وهو يلعب بالباركر فى يده :

ـ والهدايا؟!

فاندفع يقول بحدة :

ـ قلت إنه كلام فارغ . أريد دليلا واحدا .

وتليت أسماء السهود من العمد أنفسهم فهتف :

ـ ما قيمة الدس الوضيع؟

ثم استدعى موظفون ممن عملوا معه على فترات متتابعة فأدلوا بأقوالهم وعرضت عليه توقيعات بخط يده لترقية موظفين بصفة استثنائية ولأداء خدمات فى الرى والزراعة وبعضها يوصى بمجرمين ريفيين ممن تربطهم صلات الرعاية أو القربى بنواب سابقين . وامتد الوقت حتى فقدت الأشياء ألوانها . وصاح بعصبية :

ـ دلونى على موظف واحد يستحق البقاء!

وتصدى له عضو فى اللجنة لم يعرفه من قبل فتكلم بعنف عن واجبات الموظف نحو الشعب ثم قال :

ـ الثورة صادقة العزم على تطهير الجهاز الحكومى من كافة أنواع الفساد وأؤكد لك أن المستقبل لن يرى مصريا واحدا مهضوم

الحق، ولا مصريا واحدا يؤثر بأى لون من ألوان الخير أو الامتياز لانتمائه إلى فرد أو أسرة أو هيئة.

ونصحه شىء فى أعماقه بألا يتعرض لمناقشة هذا العضو فلاذ بالصمت. واستمر التحقيق حتى الرابعة مساء، ثم غادر اللجنة كعود جاف مقصف اخترمته دودة عاتية! واخترق إلى الدقى طرقات غرقت ـ كقارة أطلس ـ بجميع أبعادها وأحيائها وجمادها تحت أمواج ذاته الهائجة المتلاطمة حتى لم يعد يرى أو يسمع أو يعى إلا القلق الشيطانى بأشواكه الحادة ومكره القاسى. وتساءلت الأم العجوز:

ـ لِمَ لا تحدث فى أمرك ابن عمك وهم منهم؟!

لدغته وصيتها فانفجرت فى عينيه نظرة جنونية من الغضب.

٨

واستدعاه مراقب المستخدمين ليبلغه قرار إحالته إلى المعاش مع ضم سنتين إلى مدة خدمته. وهو نفس المراقب الذى كتب مذكرات ترقياته الاستثنائية التى توجت بترقيته إلى الدرجة الثانية.. ولعله مازال يحتفظ بمشروع مذكرة لترقيته إلى درجة الأولى كانت قد أعدت لرفعها إلى مجلس الوزراء قبيل إلغاء المعاهدة بأسبوع واحد ثم لم تحظ بفرصة لاعتمادها فى غمار الأحداث التى أعقبت إلغاء المعاهدة، ولم يكن للرجل لون حزبى ولكنه لم يشك لحظة فى كراهيته له لتساويه عه فى الدرجة رغم فارق السن الشاسع بينهما. وتأثر المراقب بمأساة الموقف فانتهز خلو الحجرة من أى مستمع وقال له:

ـ لا يعلم إلا الله مدى حزنى يا أستاذ عيسى...

فشكره وهو على يقين من مدى كذبه فثمانية أعوام فى معاشرة الموظفين كافية جدا ليجيد ترجمة مصطلحاتهم المحفوظة فى المجاملات إلى معانيها الحقيقية. وها هو ملف خدمته مطروحا

على مكتبه، وها هو اسم مخطوطا على غلافه بالفارسى «عيسى إبراهيم الدباغ» فرآه بعين الخيال وهو يلقى فى الدفتر خانة ليقبر هنالك إلى الأبد بكل ما يسجل فى أوراقه من توقعات تاريخية تشهد له بالامتياز وتبشره بأسعد مستقبل. وسأل عن مقدار معاشه فأجاب المراقب:

ـ اثنا عشر جنيها ولكنك ستقبض مرتبك كاملا لمدة عامين...

وغادر الوزارة بعينين تحملقان فى داخل رأسه. أيقن الآن أنه قضى عليه بأن يعانى التاريخ فى إحدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يثب وثبة خطيرة مخلوقاته التى يحملها فوق ظهره فلا يبالى أيها يبقى وأيها يختل توازنه فيهوى. ومشى طويلا فى دفء الشمس دون هدف وفى غفلة تامة عن الشوارع التى يخبط فيها. تذكر البوديجا قهوته المختارة فمضى إليها. فى مثل هذا الوقت من الظهيرة ليس ثمة أمل فى أن يجد فى مجلسه أحدا من أصدقائه فراح يحتسى الشاى وحيدا وصورته فى إحدى المرايا المصقولة تؤانسه رغم كآبة منظرها. ووجد الجماعة تلعب النرد وتتحمس حتى الجنون لما يجىء به الزهر، وجد فيها أصدق مثال للامبالاة التى تلقت بها الدنيا كارثته فتحول عنها وعن الغارقين فى دخان النارجيلة إلى صورته الكئيبة. لو نطقت هذه الصورة لوجدت حقا من يفهمنى. خبرنى ماذا فعلت، ولِمَ لم تقرأ المستقبل إذ هو على بعد ساعات منك على حين تؤكد أخبار وقعت فوق سطح الأرض منذ ملايين السنين. وهذا الوجه ذو الرأس الكبير والهيئة المثلثة

الذى مدحه أحد الشعراء فشبهه بدلتا النيل، وهذا الوجه الذى كان مرشحا للصفحات الأولى من الصحف، ما باله يندثر كالديناصور عملاقة الأساطير البائدة. وكالشاى الذى تحتسيه المقتلع من أرضه الطيبة فى سيلان ليستقر آخر الأمر فى مجارى القاهرة. وإذا علوت بضعة آلاف من الأقدام فى الفضاء فلن ترى فوق سطح الأرض حيا ولن تسمع صوتا إذ يذوب كل شىء فى حقارة رهيبة كونية. والماضى الضخم الذى ما زالت أنفاسه تتردد على وجهك تقطع القرائن بأنه سيتحلل وشيكا ويتعفن ولن تبقى منه إلا على رائحة كريهة.

وارتفع صوت يقول فى عصبية:

ـ قلبى يحدثنى بأننى سأجدك هنا..

وأقبل سمير عبد الباقى فجلس إلى جانبه بوجه شاحب ونظرة منكسرة كأنما تطالعه من وراء قضبان. وفرح عيسى به فرحة جعلته يشد على يده بقوة نابضة بالاستغاثة. وعاد سمير يؤكد:

ـ قلبى يحدثنى بأننى سأجدك هنا!

فضحك عيسى ضحكة عالية اختلج لها جفنا صاحب القهوة وراء طاولته ثم قال:

ـ ولن تجدنى منذ اليوم إلا هنا!

فرنا إليه بنظرة ميتة من عينيه الخضراوين وقال:

ـ وأنا كذلك اليوم، وقد غادرت الوزارة لآخر مرة . .

وتبادلا نظرة طويلة مغرورقة باليأس، ثم اجتاح عيسى مرح غريب لكنه مريب غير أصيل كأنه منبعث من خمر أو مخدر وتساءل :

ـ وما العمل؟

ـ لدينا هدنة عامين بمرتب كامل .

ـ وبعد ذلك!

ـ يمكن أن نجد عملا فى شركة .

فتساءل عيسى بارتياب :

ـ وأى شركة تجازف بقبولنا؟!

فقال سمير متنهدا :

ـ لابد لكل مشكلة من حل . .

ومضى فى طريقه إلى مسكنه وهو ينظر إلى الناس بغرابة كأنما يراهم لأول مرة . وهم غرباء لا يمتون إليه بسبب ولا يمت إليهم بسبب، وهو منفى فى مدينته الكبيرة، مطارد بغير مطاردة، وعجب كيف انهارت الأرض تحت قدميه فجأة كأنها نفخة من تراب، وكيف تقوضت الأركان التى قاومت الدهر ربع قرن من الزمان . . وألقى نظرة على وجه أمه الذابل ثم دهمها بالخبر

فوضعت راحتها فوق يافوخها كأنما لتوقف الألم المتصاعد وتأوهت متسائلة :

ـ لِمَ يفعلون بك ذلك يا بنى؟

من الخير أنها لا تدرى شيئا . وراح يتجول فى المسكن على مهل . يا له من مقام نفيس لا يمكن الاحتفاظ به بعد الآن . مرتب عامين ورصيد فى البنك من نفحات العمد . ولكن هل يكفيه ذلك إلا عامين آخرين؟! وجميع هذه التحف التى تزين المدخل والاستقبال والمكتبة هى أيضا «هدايا» . أجل إن المذنبين أضعاف المطرودين ولكنه مذنب وأصحابه مذنبون . أين الأيام البعيدة الطاهرة أين! . أما الختام فهدايا محرمة وفساد ثم الضياع المباغت وهو على عتبة المناصب العالية المودية إلى كرسى الوزارة! . وكيف تعيش فى دنا من الناسين والمتجاهلين والشامتين وقد طويت الأمجاد كأن لم تكن ونشرت الأخطاء كالأعلام؟!

وذهب عصرا إلى فيللا على بك سليمان تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عصفت بالجو ريح باردة أثارت غبار الأرض كالخماسين . . وفكر وهو يصعد السلم المرمرى العريض بأنه لولا الحصانة القضائية لقذف بعلى بك سليمان إلى جانبه فى الشارع . وكان البك فى الخارج وسوسن هانم فى الفراش متوعكة بنزلة برد ثم جاءت سلوى فى روب من المخمل الأزرق سطع من طوقه وجهها كالضياء . وهو وجه على جماله شحيح

التعبير فلم يستطع أن يقرأ فى صفحته أثر الأحداث ولكن قلبه المكروب اهتز لمرآه ونبض فيه الشوق كلحن قلق. وقال لنفسه إنها القيمة الوحيدة الباقية لى فى الحياة. وتساءل فى اللحظة التالية ترى هل هى «لى» حقا؟!. ورغبة فى حسم الوساوس قال بإيحاء مخيف:

ـ سلوى... أحالونى إلى المعاش...

اختلجت عيناها الجميلتان الخاملتان وهمست فى ذهول:

ـ أنت؟!

فقال مسلما أمره للمقادير:

ـ نعم أنا كما يقع للكثيرين فى هذه الأيام.

فحدجته باستغراب قائلة:

ـ ولكنك لست كالآخرين!

فوخزه قولها كطعنة فى العين، وترنح خياله منذعرا بين التحف ورصيد البنك ثم قال:

ـ إنهم ينتقمون منا باسم التطهير.

امتد بصرها عفوا إلى تمثال برونزى لفارس مغربى يمتطى جوادا كأما تستلهمه الرأى ثم تمتمت:

ـ تصرف غير لائق!

فتشجع قائلا :

ـ سوف أجد عملا خيرا من وظيفتى . .

وابتسمت كأنما لتعتذر عن فتورها المتزايد وتساءلت :

ـ أين؟

وتساءل هو عن مدى حبها وعما تضمره له الأيام من غدر جديد ولعن فى سره صورة رئيس لجنة التطهير التى اقتحمت خياله فجأة، ثم أجاب :

ـ فى شركة أو فى العمل الحر .

وبرز طرف لسانها ليرطب شفتيها فى حركة طبيعية وشت بنسيانها لنفسها فأدرك مدى الخيبة التى تعانيها وقال برجاء :

ـ دعنى أستمد القوة منك!

فابتسم فوها وحده وغمغمت :

ـ أتمنى لك النجاح . .

فطرح يده على يدها المبسوطة فوق ذراع المقعد وقال فيما يشبه الهمس :

ـ الحزب يهزأ بأمثال هذه المشكلات بكل بساطة . .

ـ نعم . . نعم . .

قد تكون فاترة الطبع ولكنها تحبه بلا ريب . وجاءه دافع قهار

ليضمها إلى صدره فمال نحوها وطوقها بذراعه، وعندما رشقته بنظرة مخمليةواستسلم جذعها لذراعة تطايرت من كمده شرارة جنسية مباغتة فانكفأ بوجهه على وجهها ضاغطا بشفتيه المتوثبتين شفتيها الرقيقتين مذعنا لتحريض شهوة طامحة للعزاء ولكنها أوقفته براحة مبسوطة وأدارت وجهها لتتخلص من هجمته فانفصلا وهما يلهثان. وانفصلا أكثر بصمت رهيب تبادلا فيه العتاب من ناحية والاعتذار من ناحية أخرى عن طريق قراءة الأفكار المحمومة ثم خرج صوته من المعمعة كسيرا وهو يقول:

ـ سلوى.. أنا أحبك.. حياتى كلها تتلخص فى شىء واحد هو أنت...

فربتت على يدهخ برقة ورثاء فقال:

ـ يجب أن تتكلمى..

فتنفست بعمق لتستعيد توازنها ثم قالت:

ـ علينا أن نواجه الحياة بكل ما فيها..

وصغى إلى عزوبة النغمة بارتياح عميق. ورد أن يغيبا عت الدنا فى مكان مجهول إلى الأبد. مكان لا سياسة فيه ولا وظائف ولا تورات ولا ماضى له. وسألها بصوت مبتهج لأول مرة:

ـ هل تهبيننى الثقة والتشجيع؟

فقالت وهى تجفف شفتيها بمنديلها :

ـ لك ما تريد وأكثر . . .

وجاءته رغبة جديدة في معانقتها ولكن صوت على بك سليمان تردد خارج الحجرة كأنما يعلن عن مقدمه .

٩

أقبل البك نحوهما شبه مبتسم، ومكث معهما قليلا، ثم دعا عيسى إلى الاجتماع به فى حجرة مكتبه، وبدا جو الحجرة فى شبه ظلام لبعدها عن الطريق ولشدة اكفهرر الجو فى الخارج فأضاء مصابيحها. وجعل عيسى ينظر إليه بعناية فقرأ فى أعماق عينيه تجهما فتساءل ترى ألهذا علاقة به أم أنه العاقبة الحتمية للأحداث؟. وحانت نه التفاتة إلى فوق. فرأى صورة للبك فى التشريفة القضائية قد حلت محل الصورة التقليدية للملك.

وتساءل على بك سليمان:

ـ كيف الأحول؟

فتظاهر عيسى بالاستخفاف وهو يقول:

ـ سأبدأ من جديد؟

وقص عليه مأساته فى كلمات من وجهة نظره فتفكر الرجل قليلا ثم قال:

ـ لن تجد الأمر سهلا . . .

ـ أعلم ذلك ولكنى غير يائس . . .

ولاحت فى عينى البك نظرة جادة لدرجة مثيرة ثم قال بنبرة الاعتراف :

ـ الحق أن الحكاية لم تكن مفاجأة لى !

ـ لعل رئيس اللجنة قد أبلغها سعادتك؟

ـ نعم .

ـ ألم يكن فى الإمكان . . .

ـ كلا ، الرجل صديق حقا ولكن اللجنة أقوى من رئيسها والخوف قد ركب الجميع . .

فقال بامتعاض :

ـ على أى حال ما فات ، فلنفكر فى المستقبل . .

ـ هذا خير ما نفعل . .

فقال عيسى متحديا المجهول :

ـ عن ذلك حادثت سلوى .

ـ سلوى؟! . . هل أخبرتها حقا؟

ـ هذا طبيعى جدا . .

بعد تردد :

ـ بكل شيء؟!

فحدجه بنظرة مريبة وقال بشيء من الحدة :

ـ طبعا!

ـ وماذا قالت؟

فقال وهو يتوثب فى باطنه لجميع الاجتمالات :

ـ ما ينتظر منها، فهى معى فى الخير والشر على السواء!.

نقر الرجل بأصبعه على الكساء البللورى للمكتب ثم قال :

ـ أحب أن أكون صريحا معك، الزواج الآن ليس من العقل فى شيء!

ـ هذا حق الآن!

وهز الرجل رأسه كأنما يخفى أكثر مما صرح به، فقال عيسى ليسبر أغواره :

ـ ما أنا إلا ضحية سياسية!

فرفع الرجل حاجبيه الغزيرين دون ما إفصاح فراح الآخر يقول بغيظ :

ـ طالما كان لى الشرف بأن أكون كذلك..

وإذا بالبك يقول فى ضجر :

ـ ولكن السياسة لم تكن هذه المرة وحدها!

وتلاقت العينان فى نظرة مزعجة فاجتاحت عيسى موجة عاتية من الغضب وتساءل بصوت متهدج :

ـ مزيدا من الشرح من فضلك؟!

فقال الآخر فى امتعاض وحزن :

ـ أنت تعرف ما أعنيه يا عيسى . . .

فسأله بحدة أسمعت أركان الحجرة الوقور :

ـ أبك شك من ناحيتى؟!

ـ لم أقل هذا . .

ـ إذن ما تقصد؟

فقال وهو يقطب استياء من حدة لهجته :

ـ القرائن خطيرة . .

فهتف :

ـ بلى هى حقيرة لدرجة أنه لا يمكن أن يضمها إلا عقل حقير! .

ـ الظاهر أن أعصابك . .

ـ أعصابى كالحديد وأنا أعنى كل كلمة تفوهت بها .

فاحتد الرجل قائلا :

ـ إذا أثرت غضبى فسيكون أمرا مؤسفا حقا!

ولم يكن بقى له من أمل فى سلوى أكثر من واحد فى المائة فصاح بجنون :

ـ لا أبالى كيف يكون الأمر ، وأا كانت خطورة القرائن التى تذكرها فإننى لم أكن يوما انتهازيا ولم يكن للملك السابق فضل على . .

وهب الرجل واقفا ووجهه يقطر غضبا قانيا ، وأشار إلى الباب بذراع متشنجة دون أن ينبس بكلمة . وهكذا غادر عيسى الحجرة .

ورغم ذلك كله قرر ألا يذعن لليأس قبل أن يستميت فى الدفاع عن ركن العزاء الذى لم يتهدم . يجب أن تكون الكلمة الأخيرة لسلوى دون غيرها . ولم يكن ينتظر الكثير من شخصيتها ولا من حبها ومع ذلك طلبها عصر اليوم التالى فى التليفون ، وقال لها بتوسل :

ـ سلوى . . يجب أن أقابلك فوراً . .

وجاءه الجواب كالصفعة . .

١٠

ـ لا مشكلة بلا حل!

هكذا تكلم إبراهيم خيرت فى ركنهم الخاص بالبوديجا. وهو لضآلة جسمه وقصر قامته يقعد قريبا من حافة الكرسى ليتمكن من إيصال قدميه إلى الأرض ويعقد جبينه فى مقدمة رأسه الضخم ليضفى على شخصيته جدية تصد عنها الهازلين. وتكومت فوق كرسيين متلاصقين معاطفهم وتقاربت رءوسهم فى القهوة المزدحمة الصاخبة. وقال عيسى لنفسه إنه ـ إبراهيم خيرت ـ يتكلم عن المشاكل والحلول بطمأنين لأن الزلازل لم تحدث خسائر فى أرضه، وهو محام ناجح وقلم يتألق فى الصحف ومثله عباس صديق المستقر فى وظيفته رغم أنه كان أشد اغتيالا منه لأموال الناس. ولكن لم يكن الحسد ولا الحنق ولا الغضب ليؤثر فى صداقتهم الوطيدة وزمالتهم السياسية القديمة، وتناول سمير عبد الباقى كبشة فول سودانى من طبق صغير ممتلئ وقال:

ـ كلام جميل، ولكن ها هى الأيام تمضى دون أن نجد حلا حقيقيا!

ونظر عيسى إلى الرذاذ المتساقط فى الخارج من زجاج النافذة وتساءل:

ـ وهل نبدأ من أول الطريق على الآلة الكاتبة؟

وراح عباس صديق يقرقر فى النارجيلة وينفث الدخان كعضو فى أوركسترا المدخنين بالقهوة والدخان ينعقد حول المصابيح المدلاة كالضباب وتأمل عيسى الوجوه المتباينة التعابير على طول القهوة، المتراوحة بين الخمول عند الحالمين، والتركيز المحموم لدى اللاعبين، وتساءل فى جزع لماذا قدر عليه أن يحارب التاريخ فى موكبه المتدفق منذ الأزل؟! وتطلع من زجاج النافذة إلى الطريق السابح فى المطر والضوء بنهم جنسى يفتش عن امرأة مهرولة بمدخل عمارة مظلم، وقال:

ـ الشتاء جميل ولكن القاهرة غير مستعدة له.

فقال إبراهيم خيرت مخاطبا سمير عبد الباقى:

ـ لا تنس أن رجالنا منتشرون فى مجالس إدارات الشركات.

ها هو يتكلم عنهم فيقول «رجالنا» ويحمل فى نفس الوقت بقلمه على الأحزاب والحزبية ويطالب بمحو الماضى محوا. وما أكثر القرف الذى يدعو إلى التقزز. وهو نفسه عنصر هام من عناصر القرف. والاستثناء المثير للحيرة حقا هو ماضيه ـ وماضيهم ـ المضىء بالإيثار وشرف النفس! وسأله:

ـ خبرنى عن شعورك وأنت تقرأ مقالاتك فى الصحف؟!

فقال إبراهيم خيرت فى رزانة غير عابىء بابتسام الآخرين :

ـ أنا أتساءل لِمَ أراد الله لآدم أن يهبط إلى الأرض؟!

ورفع عباس صديق وجهه عن خرطوم النارجيلة وهو يجلس على كرسيه ربعة بدينا فاقع بياص الوجه جاحظ العينين براقهما لحد المرض أصلع يوحى منظره جملة بأنه أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقل، وقال :

ـ سوف نشقى حتى نراكما فى وظيفتين كبيرتين بشركة محترمة . .

وراح عيسى يحاول النفاذ إلى بواطن الآدميين المتكتلين فى القهوة لغير ما سبب واضح . وجرى فى الماضى ملايين السنين بين الدهشة والارتياع . ثم التفت نحو زجاج النافذة فرأى شحاذا واقفا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة وقد انقطع المطر فقال لأصحابه :

ـ تصوروا أن هؤلاء الآدميين انحدروا فى الأصل من السمك!

ـ لكن الأسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين . . ؟

فقال بفتور :

ـ وهذا هو سر مأساتنا الحقيقى . .

وطرد الشحاذ بإشارة من يده وعاد يقول :

ـ يعزينى أحيانا أن أرى نفسى كالمسيح أحمل خطايا أمة من الخاطئين؟

فسأله عباس صديق :

ـ هل أنت متأكد من معلوماتك التاريخية؟

فقال لنفسه إنه تأكد منها ساعة أغلقت التليفون فى وجهه . وقال إبراهيم خيرت بتحريض :

ـ الليلة مناسبة جدا لشىء من البراندى . .

وشرب سمير عبد الباقى قليلا من الماء ليرطب فاه الذى جف بطحن الفول السودانى وقال :

ـ حتى على فرض أننا أخطأنا ألم يجدوا فى ماضينا ما يشفع لنا؟!

وأغمض عيسى عينيه ليرى الماضى . فترة حية من نبض القلب . هدير المجد يخلد فى الأسماع . وهراوات الجنود كالصواريخ ، والحماس المهلك للأنفس . ثم الإغراء الموهن للهمم . وزحف الفتور كالمرض . ثم الزلزال دون نذير كلب . ونشدان العزاء عند قلب أجوف ، ثم صرير التليفون كصوت العدم .

وقال سمير عبد الباقى أيضا :

ـ كنا طليعة ثورة فأصبحنا حطام ثورة!

فقال إبراهيم خيرت باهتمام وكأنما يبرر موقفع بصفة عامة :

ـ أقول إنه علينا أن نلحق بالركب . . .

فتجلت نظرة حزينة فى عينى سمير عبد الباقى الخضراوين وقال :

ـ قضى علينا بأن نموت مرتين . . .

فأيد عيسى رأيه قائلا :

ـ هذا هو الواقع ولذلك فنحن نتغذى بالسمك !

ورأوا ماسح الأحذية يدق صندوقه حيالهم فاختبأوا فى الصمت حتى ذهب . وضحك سمير عبد الباقى ضحكة عالية استدعت تساؤلهم فقال :

ـ أذكر أننى أوشكت يوما أن أدخل المدرسة الحربية !

فضحكوا معا قال إبراهيم خيرت :

ـ ما رأيكم فى أننى أتفاءل عند اشتداد الظلمات؟ !

فقال عيسى لنفسه ليس المعزى كالثاكل . وغادر القهوة حوالى العاشرة مساء وهو يحبك المعطف حول جسمه . ونظر إلى السماء فرأى آلاف النجوم وهى تومض . وتنشق فى الجو الصافى عبير الشتاء غب المطر . وعكست الأرض المغسولة لونا سجابيا لامعا ، غير أن هواء باردا لفح وجهه فى هبات متقطعة منعشة كالدعابات القاسية ، وعاوده الإحساس بالغرابة فمضى يطمئن نفسه بمرتب العامين الكامل ورصيده فى البنك المحصل من العمد .

وفى جروبى جلس إلى عبد الحليم باشا شكرى والشيخ عبد الستار السلهوبى الذى كان يهمس بآخر نكتة. وسألاه عن الأخبار بطريقة آلية، وانتظر أن يفاتحه الباشا بنتيجة مسعاه فى إيجاد عمل له ولكن الشيخ السلهوبى سأله متهكما:

ـ ألا تزال فرحا بإلغاء المعاهدة؟

فأدرك أن الشيخ قد أصيب حقا بعقدة المعاهدة الملغاة التى يرجع إليها فى جميع الأرزاء التى نزلت بهم، وقال عبد الحليم شكرى:

ـ الأحداث تنقض على زملائنا كالصواعق!

ثم تساءل فى قلق:

ـ هل يجىء دورنا؟!

وراح عيسى يحتسى الشاى وهو يرمق الوجوه الرائقة بحسن التغذية، وإذا بعبد الحليم شكرى يميل نحوه قائلا:

ـ كل آن قريب!

فاشتعل باطنه بالغضب وقال لنفسه: ما من أحد منهم إلا وقد قصده قديما فى خدمة قضيت فما بالهم يتنكرون له؟!

وندت عن حسناء ضحكة بارعة كلحن جنسى وهو يغادر المحل. وفى الطريق دهمته الآلان التى هصرته حال إغلاق التليفون فى وجهه فكاد رغم البرد ينصهر. وهو الذى أحبها دون

أن تثبت جدارتها بحبه لحظة واحدة. كلاهما قبل صاحبه أول

الأمر لمزايا تهمه لا علاقة لها بالحب ولكنه أحبها بعد ذلك

بصدق، أما هى فما أسرع أن أغلقت التليفون. ولعله من حسن

الحظ أنه تلقى ضربة القلب وهو فريسة لضربه السياسة فلم تستأثر

به وحدها، وجعل ضيقة بكل شىء يستفحل حتى لم يترك فى

النفس متسعا لأى قيمة. كيف توهم نفسك بأنك تريد عملا كما

توهم الآخرين؟!. العمل هو آخر ما تريد. فليعلم ذلك جميع

السكارى. وابغ قبل ذلك عشرات الحماقات. واستمتع بنقاهة

أطول من الموت. وليكن ما يكون.

١١

وجاء حسن ابن عمه لزيارتنه . وقال عيسى إن الذى تقبل عليه الدنيا لا يزور أحدا أدبرت عنه فلماذا جاء؟ ، وتذكر عمه فثار باطنه وتوثب للتحدى ، غير أنه استقبله بترحاب كلفه جهدا جهيدا . ومذ جمعهما المركز شعر برغبة فى الاختفاء كمجرم ولكنه أطلق من ذاته المكدودة مرحا مسرحيا . . وتبدت حيوية حسن فى أوجها وجرت فى ملامحه البارزة الحسنة دماء الثقة والنجاح . لم يعد الناقد الحاقد المغلوب على أمره وعما قليل سيجود بمكارم عطفه ! . وثمة شعور باطنى أثار اهتمام الأم بالزيارة فكف عن غمغمة التسبيح لتسمع كل كلمة تقال . وسأل حسن ـ وهو يتمطق أثر حسوة شاى ـ عن الحال ، فأجاب عيسى بضحكة ولم يقل شيئا فعاد الآخر يسأل مرة أخرى فقال :

ـ ألا ترى أنى أعيش كالأعيان؟

فقال بجد :

ـ آن لك أن تعمل . .

ورمشت الأم فى أمل وأمنت على قوله بحرارة فاغتاظ عيسى من اندفاعها وتساءل فى ارتياب عن سر الزيارة وأقسم ألا يقبل الزواج من بنت عمه ولو مات جوعا، ثم قال بثقة زائفة:

ـ لو أردت العمل لوجدته..

فسأله الآخر برزانة أخوية:

ـ ولِم لم ترده؟

ـ لأن أريد راحة طويلة، زهاء عامين أو أكثر!

ـ أنت تمزح بلا شك؟

ـ بل لا أجد داعيا للعجلة..

ثم بامتعاض شديد:

ـ وبخاصة وأن الخطبة قد فسخت..

فنظر حسن إلى الشجرة الجامدة وراء زجاج النافذة ليتجنب عينى صاحبه ولم ينبس قسأله عيسى باهتمام:

ـ هل علمت بالخبر؟

فقال بلهجة دلت على أنه يخوض الحديث مكرها:

ـ نعم فى مقابلة عابرة مع على بك..

ثم مستدركا بلهجة انتقادية:

ـ موقف يدعو على الأسف الشديد!

فقال عبيسى بحدة:

ـ لقد أعطيته درسا لا ينسى..!

ـ استنتجت هذا فى اللقاء العابر رغم أنه لم يشر إليه بكلمة، ولكن دعنا من ذلك فلعل الخير فيما اختار الله...

ثم حدجه بنظرة ودية وقال:

ـ ثمة مكان لك فى شركة محترمة!.

فأعرب عن تساؤله بتقطيبة طارئة فقال حسن:

ـ شركة جديدة للإنتاج والتوزيع السينمائى، وقد اخترت أنا نائبا للمدير، ولكننا فى حاجة إلى مدير حسابات كفء...

وهتف الأم:

ـ فيك الخير كل الخير يا حسن...

وقال عيسى لنفسه: وضحت الصورة، موظف تحت رياسته وزوج لأخته ودون ذلك فليأت الموت إذا شاء. وقال بوضوح:

ـ إنى أهنئك وأشكرك...

ثم وهو يبتسم كالآسف:

ـ ولكنى أعتذر..

فارتسمت الخيبة فى الوجه الفياض بالحيوية وتساءل :

ـ ألا تفكر فى الأمر؟

ـ أكرر الشكر والاعتذار . .

وردد بصره بينه وبين الأم الذاهلة وقال :

ـ إنها وظيفة محترمة جدا . .

ـ بدليل أنك اخترتها لى ولكننى مصمم على القيام بإجازة طويلة . .

فتريث قليلا ثم قال :

ـ ليست مجرد وظيفة ولكنها فى الوقت نفسه فرصة للاندماج فى الحياة الجديدة إذ أن الغرض من تكوين الشركة هو خدمة أغراض الدولة ! .

فقال بتصميم :

ـ الراحة الآن أهم من أى غرض فى الحياة . . .

من موظف صغير إلى نائب مدير شركة ! . واشتد جنون رغبته فى الإضراب عن العمل ، وتوطدد نزوعه نحو تدمير نفسه . ووقف حيال محاولات الآخر بكل عناد حتى اضطر هذا إلى أن ينصرف دون نتيجة . مخلفا فى نفس عيسى مسرة عمياء وإحساسا وهميا بالانتصار .

وتأوهت الأم قائلة :

ـ أنا لا أفهم شيئا . .

فقال ساخرا :

ـ ولا أنا . . .

فقالت بمرارة :

ـ أنت لا تحب ابن عمك . .

ـ ولا هو يحبنى !

لكنه فى الوقت المناسب لم ينس أصله !

ـ لا لوجه الله .

فقالت بإصرار :

ـ ولو ، بنت عمك خير من سلوى ، هل نسيت؟! ، ليتك تفكر فى الأمر .

فقال بغموض وبصره معلق بالسحب المتراصة فى الأفق م خلال أغصان الشجرة :

ـ إنى أفكر حقا فى هجر القاهرة . . .

١٢

وصارع التردد أشهرا. ويوما قال لأمه:

-إنى أفكر حقا فى السفر إلى الإسكندرية..

وكانت الأم تزداد اعتيادا لغرابة أطواره كما تزداد ذبولا ونحولا، فقالت بهدوء:

ـ ولكن الصيف انتهى..

ـ أريد الإقامة لا التصييف..

فاختلج جفناها قلقا فاستطرد قائلا:

ـ أعنى لفترة من الزمن.. أود أن أقيم فى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا أعرف فيه أحدا.

فقالت فى امتعاض شديد:

ـ حالك لا يعجبنى، والإنسان يجب أن يواجه الصعوبات بصورة أخرى، وما زالت أمامك فرصة لم تضع عند ابن عمك..

وعندما وجدت منه إصرارا استعانت بأخواته الثلاث فسارعن إلى الدقى. وهن جميعا متزوجات ويحملن فى وجوههن طابع الأسرة الممثل فى هيئة الوجه المثلثة والأعين المستديرة وجميعهن يكنن لعيسى حبا صادقا لا لأنه كان شخصية لامعة يعتززن بها فحسب ولكن أيضا لأنه صاحب الفضل الأول على أزواجهن فى العلاوات والترقيات على عهد نفوذه. وأجمعن على المعارضة فى سفره كما أجمعن على وجوب الموافقة على اقتراح ابن عمه.

ـ مامعنى أن تقيم فى بلد كالغريب؟

ـ ألا يكفى أن أجد فى ذلك راحة؟

ـ ومستقبلك؟

فقال بحدة:

ـ مستقبلى أصبح ماضيا!

ـ بل أمامك فرصة لاستعادة كل ما فقدته!

ورفع يده يدعوهن إلى الكف بحركة حاسمة، ثم قال بهدوء:

ـ لا جدوى من هذا الكلام المعاد، المهم والجديد هو أننى قررت الانتقال من هذا المسكن!

وبهت الأم حزنا فقال كالمعتذر:

ـ لم يعد من الحكمة أن أتحمل نفقاته الباهظة..

ـ ألهذا علاقة برغبتك فى السفر؟

فقال متجهما :

ـ كلا ، إنى أعتبر السفر علاجا ضروريا . .

فقالت الأم فى توسل :

ـ لا تشمت أعداءك بك ، يمكنك ولا شك الاحتفاظ بمسكنك الجميل وكل مظاهر حياتك إذا أنت وافقت على ما عرضه عليك ابن عمك . .

فأغمض جفنه دون كلام رافضا الاستمرار فى مناقشة عقيمة فقالت الأم بمرارة :

ـ أنت ابنى وأنا أعرفك ، أنت عنيد جدا ، ودائما كنت عنيدا ، أنت تختار الكبرياء ولو كفك الكثير ، ولم تكن تجد بعنادك عندنا إلا المحبة والتسامح ولكن الدنيا ليست أمك ولا أخواتك !

فقال بإصرار وهو يهز منكبيه استهانة :

ـ سأفترض أننى لم أسمع شيئا . .

فقالت بمزيد من التوسل :

ـ يجب أن تمتثل أمر ربنا ـ الملك ملكه يفعل به ما يشاء ، والمستقبل بيده ، وتستطيع أن تكون سعيدا دون أن تكون وكيل وزارة أو وزيرا . .

حول عينيه إلى أخواته متسائلا :

ـ أين يحسن أن تقيم الوالدة حتى أرجع؟

وعدلن عن المناقشة، واقترحت كل واحدة منهن أن تقيم الأم عندها، ولكن الأم قالت:

ـ سأرجع إلى البيت القديم بالوايلية.

وهتفت وهيبة وهى أبرهن بأمها:

ـ لن تقيمى وحدك أبدا..

ـ أم شلبى لن تفارقنى وآمل ألا تنقطعن عن زيارتى..

وتذكر عيسى البيت القديم الذى شهد مولدهم جميعا. وبخاصة حوشه الواسع وأرضه الرملية القاحلة. ولم يدر كيف يعرب عن استيائه ولكنه سأل أمه:

ـ أليس الأوفق أن تقيمي عند إحدى أخواتى؟

فقالت بعصبية:

ـ كلا. أنا أيضا عنيدة، ومن خير الجميع أن أعيش فى البيت القديم. وأكدت كل أخت من بناتها أنها ستسعد بإقامتها عندها ولكنها لم تبالهن. وامتلأ إحساس عيسى بالمسكن الجميل الذى قال فيه كلمته الأخيرة. ونظر إلى الأشجار خارج الشرفة وهى تهتز فى رقة بالغة فى إطار من جو الخريف الأبيض الموحى بالشجن وقال لنفسه «ألا لعنة الله على التاريخ».

وإذا بوهيبة تقول :

ـ البيت القديم غير صالح للسكنى لمن اعتاد الإقامة هنا !

وخيل إلى عيسى وهو يرى خلجات جفنى أمه وشفتيها أنها ستبكى ولكنها قالت بصوت متهدج :

ـ هو صالح تماما وفيه ولدنا جميعا . .

١٣

جميع ما يحيط بنا يعد براحة كالموت. ومن أضناه الألم خليق بأن يرحب بالمسكن وإن يكن سما. وهذه الشقة الصغيرة المفروشة دليل على أن الحضارة لا تخلو أحيانا من نقطة رحمة. وها هو البحر يترامى فى عظمة كونية حتى يغوص فى الأفق ولكنه يستمد من حلم أكتوبر حكمة ودماثة. وجدران الحجرات محلاة بصورة الأسرة اليونانية فى الشرفات والنوافذ وعلى قارعة الطريق، غريبا فى موطن غرباء، وتلك مزية الإبراهيمية، والمقهى المرصع طواره بالأشجار وسوق الخضار بألوانه النضرة والحوانيت الأنيقة تحفل بالوجوه اليونانية وتتردد فى جنباتها ـ بعد زوال الموسم ـ لغتهم الأجنبية فخيل إليك أنك هاجرت حقا وتنهل من الغربة حتى تسكر. وهولاء الأجانب الذين طالما أسأت بهم الظن أنت اليوم تحبهم أكثر من مواطنيك وتلتمس عندهم العزاء، إذ أن جميعكم غرباء فى بلد غريب. واختيار شقة فى الدور الثامن دليل آخر على الرغبة فى الإمعان فى السفر. وعن بعد ترى البحر من فوق قطاعات متلاحقة من الأبنية المنخفضة تمتد حتى الكورنيش. ترى البحر وقد سحره

أكتوبر فأخلد إلى أحلام اليقظة وترى أيضا أسراب السمان تتهاوى إلى مصير محتوم عقب رحلة شاقة مليئة بالبطولة الخيالية. القاهرة الآن ذكرى مغلفة بالحزن. والوحدة تجربة مرة ولكنها ضرورية لتجنب النظر إلى الوجوه المثيرة للقلق والأرق.. ومعالم المجد المحرضة على الحسرة. جرب الوحدة ورفقاء الوحدة ـ الراديو والكتاب والأحلام ـ وانظر هل يمكن أن تنسى لغة الكلام؟. وتتابع اللحظات بلا ضابط يضبطها فأنت لا تعرف الوقت ولا تكاد تعرف اليوم ولذلك ترفع بصرك فى دهشة نحو قرص الشمس الماسى الهادئ كما يبدو خلف سحب الخريف الصريحة. وها هى الحياة تغازلك رغم الكمد وكأنك ترى الدنيا والناس لأول مرة بعد أن أفقت من حمى العراك والمطامع. وقيمتها الذاتية تتكشف معلنة عن بهجة الإبداع ولم يكن مسير الشمس قبل ذلك إلا بشيرا بتقديم مذكرة أو نذيرا مقابلة السفير.. وقد دفنتنا الأحداث ونحن أحياء وما هذه الشقة اليونانية فثمة وحده حقيقية وقلب نابض. وركن البوديجا لا يسلى عنه القلب ولكن ما أقبح عواطفه المتناقضة فأنا أحبهما ـ عباس صديق وإبراهيم خيرت ـ وأبغضهما فى آن، أحب جانبهما الذى عاش قبل الثورة وأكره وسائلهما التى عاشا بها بعد الثورة، وعندى الآن فرصة لتصفية هذه العقد الصفراء، والهموم كالجبال والعقل علاه الصدأ ولكن سبيل العزاء المحفوف بالحماقات ممهد أمام مال الحرام وأحلام يقظتك التى ينتهى فيها العذاب بالانتصار. ونظرة من عل إلى هذا الخلاء الذى لا يحد تهب النفس

راحة ورفعة فوق كل شئ. ولم يا ربى لا تلهمنا ومضة عن معنى هذه الرحلة الشاقة المخضبة بالدماء؟ ولم لا ينطبق هذا البحر الذى شهد الصـــراع منذ الأبدية؟! ولم تأكل هذه الأرض الأم أبناءها عند المساء؟. وكيف يكون للحجر دور فى المسرحية، وللحشرة دور، وللمحكوم عليه فى الجبل دور، وأنا لا دور لى ؟.

ومضى ذات صباح إلى جليم تلبية لرسالة تلقاها من سمير عبدالباقى، لم يكن رآه منذ انتقاله إلى الإسكندرية فى منتصف سبتمبر ولم يكن رأى كازينو الفردوس منذ صيف ١٩٥١ : وكان الساحل خاليا والكازينو شبه خال كحاله فى الأيام الأخيرة من أكتوبر. على عهد النفوذ كان يذهب إلى الفردوس فى مجال من الخيلاء ترمقه الأعين باهتمام فيشق طريقه إلى مائدته المحجوزة بين أصدقاء وأعداء من الباشوات فى تلك الدنيا الزائلة. والحفل الذى أقيم فى الفردوس منذ عامين هل يمكن أن ينسى؟. الصوت الملائكى والبهجة الشاملة والهتافات المدوية، ومجيئه هو فى ركاب الزفة ليشرب ويطرب ويسهر ولم يكن يرى على مدى الآفاق إلا آمالا واعدة بالفوز المبين.

وجلس بمجلسه القديم على يمين المدخل الجوانى بين مقاعد شاغرة. وعلى مائدة متفرقة بضعة من معمرى الباشوات الذين يستميتون فى التصييف حتى اللحظة الأخيرة، وثمة امرأتان وحيدتان، عجوز وأخرى فى منتصف العمر، وأحاط بالمكان سكون رهيب. واسترق إلى العجوز نظرة وقال لنفسه إن سلوى ستلقى

نفس المصير فى يوم من الأيام. كالمجد والعزة وشتى الآمال. وأعجب بانبساط الماء ودماثته وزرقته الصافية كما أعجب السحب الحبالى بماء الورد الأبيض. جاء سمير عبد الباقى فى ميعاده فتعانقا بحرارة. وبدا سمير ناحلا أكثر مما تركه ولكنه أحسن صحة وأصفى عينا. وقال:

ـ جئت أنا وزوجتي لتعود أمها وسنسافر غدا..

فسأله عن ركن البوديجا فأجاب بأنه لا جديد، ثم قال:

ـ أما أنا فبعت نصيبى فى بيت قديم وشاركت خالى وهو تاجر أثاث، أنا فى الواقع مدير أعماله وحساباته وشريك صغير له..

فهنأه عيسى، وأخبره بأنه لا رغبة له فى العمل فى الآونة الحاضرة، ونظر سمير فيما حوله فى دهشة ثم قال:

ـ انظر إلى الإسكندرية كم هى خيالية!

ـ الدنيا كلها خيالية، ما هذا بيمينك؟

فناوله كتابا قرأ على غلافه «الرسالة القشيرية» ثم حدجه بنظرة متسائلة فقالسمير:

ـ ألم تسمع عن التصوف؟

فضحك ضحكة مختزلة وقال:

ـ لم أعرف فيك اهتماما به من قبل!

ـ هذا صحيح ولكنى سمعت أحمد باشا زهران وهو يتحدث عنه بجدية حقيقية، وقد أهداني فى مناسبات مختلفة بعض الكتب عن الموضوع فوجدتني أبحث عنها فى الأيام الأخيرة. .

وقال عيسى ووجه لم يتخلص بعد من ذيول ضحكته:

ـ وهل أنت جاد فيه أو المسألة مجرد تسلية؟!

فقال وهو يفرغ زجاجة الكوكاكولا فى الكوب:

ـ أكثر من تسلية، فيه راحة حقيقة للقلب.

ثم بعد شربة أتت على نصف الكوب:

ـ وكونك لا تبحث عنه إلا تحت ضغط ظروف معينة لا يجحد فضله فقد لا نذهب إلى أسوان شتاء إلا لمعالجة مرض ولكن هذا لا يطعن فى فائدة أسوان للمريض والصحيح على السواء. .

فقال عيسى ساخرا:

ـ ولكن يوجد ولا شك فارق بين أن نتصوف حيال أزمة سياسية وبين أن نتصوف لوجه الله والدنيا مقبلة علينا.

ـ فابتسم سمير فى صبر وتجلت شفافية عينيه الخضراوين أصفى من السحب الناصعة البياض وقال:

ـ نعم ثمة فارق ولكن العبرة بالنتيجة، وأحيانا تدهمنا كارثة لتهدينا سواء السبيل!

ـ ولكن هب الدنيا. .

وانقطع عن الحديث فجأة- كأنه عثر فى الصمت- بسبب نظرة طويلة تبودلت بينه وبين المرأة النصف المصاحبة للعجوز، ثم رجع إلى صاحبه وقال لنفسه: لو سارت الأمور كما يشتهى لكانت سلوى زوجة له منذ عام على الأقل لو؟!. وسأل سمير:

ـ ما رأى التصوف فى حرف "لو"؟!

ولم يدرك سمير مرماه فأجاب هو:

ـ لو حرف لوعة يطمح بحماقة إلى توهم القدرة على تغيير التاريخ.

فقال سمير ببساطة:

ـ منهذه الناحية فهو إنكاره لإرادة الله المتجلية فى التاريخ من شأنه أن يضفى عليه عبثا ولا معقولية.

سلوى لم تتزحزح من قلبك. رغم احتقارك لشخصيتها. وقد يقرر العقل مواصفات للمرأة المثالية ولكن الحب فى صميمه سلوك لا معقول. كالموت وكالقدر وكالحظ. وما أشبه سلوى بالدنيا فى المعاملة، ولكنك ستظل فى حاجة إلى امرأة فهى مسكن طيب للآلام يفوق التصوف على الأرجح. وتذكر السؤال الذى قطعه فقال بنغمه اعتذار:

ـ هب الدنيا وعدتنا مرة أخرى بالوزارة فماذا تصنع بالتصوف؟

فضحك سمير حتى لمعت أسنانه النضيدة وقال:

ـ غير مستعص أن أمارس الاثنين معا، هكذا فعل أحمد باشا

زهران أكثر من مرة، وها أنا أجمع بين التصوف والتجارة، وهو لا يخمد النشاط ولكنه ينقيه من الشوائب . . !

فقال عيسى بحزن :

ـ وهو على أى حال خير من الانتحار!

وأشرقت الشمس مقدار ثوان ثم توارات . وسأله سمير عما ينوى أن يفعل فسأله بدوره :

ـ هل انتهينا حقا؟

فهز رأسه فى حيرة قائلا :

ـ هو الأرجح فليس الأمر كالانقلابات الماضية . .

فسكت عيسى مليا كأنما يصغى إلى الصمت الشامل ثم قال :

ـ ما أشبهنا بساحل الإسكندرية فى الخريف!

ـ لذلك أقول لك إنه لا بد أن نعمل . .

ـ ومع أى عمل سنتخذه سنظل بلا عمل، لأننا بلا دور، وهذا سر إحساسنا بالنفى، كالزائرة الدودية . .

ثم وهو يبتسم :

ـ ولا أخفى عليك أن لى تصوفى الذى يشاغلنى فى الوحدة .

فتطلع إليه باهتمام فقال الآخر ببساطة :

ـ إنى أفكر فى احتراف الجريمة . .

فضحك سمير طويلا ثم قال :

ـ يا له من تصوف بديع !

ـ غير أنك لا تقتل فيه جسدك أنت ولكن أجساد الآخرين .

وضحكا معا حتى قال سمير :

ـ نحمد الله فلا زالت لدينا القدرة على الضحك . .

ـ وسنزداد ضحكا كلما رأينا التاريخ وهو يصنع لنا دون أن نشارك فيه كأننا الأغوات . .

وهبت نسمة لطيفة ، وبدا الباشوات كالنيام ولغير ما سبب تذكر أول خطبة له فى بيت الأمة وهو طالب بالجامعة . قال بأسى :

ـ تاريخنا نفسه مهدد بالإبادة . .

ـ التاريخ واسع الصدر ، وسيدافع عن نفسه بعد انقراض المتخاصمين جميعا . .

ومر بهما مدير المحل الرومى فابتسم إلى عيسى وسأله عن الصحة وعن الحال فأدرك من توة المغزى السياسى لسؤاله وقال باسما :

ـ هى كما ترى . .

وعندما رجع إلى عمارته شاهقة الارتفاع القريبة من محطة الترام كان يجتر حزنا على فراق سمير . ولعن وهو يخوض عتمة المدخل لطويل سلوى . وقال لنفسه وهو يدخل إلى المصعد : «ما أحوجنى إلى مسكن» .

١٤

وحده مع كأسه فى الطرقة الشاحبة الضوء التى تصل بين معرض الحلوى فى الخارج وصالة الرقص فى الداخل بالترياتون الصغير. وعشرات من الآلات العازفة تبعث بالأنغام الراقصة والأجساد المتعانقة تتراقص فى حركات خفيفة رشيقة تنفض بها عن ذواتها متاعب ضوء الشمس. وهؤلاء الحسان ينسبن إلى بيوت لا إلى الشوارع كما كان الحال قبل الحرب وفى أثنائها وقد أدرك هو جانبا من ذلك التاريخ على عهدى مراهقته وشبابه. أما النسوة فقد أثرين فى زمان الحرب وترفعن عن العرض الرخيص فاختفين من الميدان، وقال عيسى لنفسه «الميدان خال اليوم لم يروم عملا سهلا مريحا من منبوذى السياسة!». وهزته نغمة فتاق إلى الرقص الذى يجيده بدرجة لا بأس بها ولكن أين الحسناء؟. ونهل من الكونياك الذى يحبه باعتدال، وشعر بأنه فى مخبأ فازداد طمأنيته وقال إن مدخره من مال العمد سيمده بالضرورى لارتكاب الحماقات الفاتنة، وقال أيضا إنه لولا إحساسنا المرضى بالمستقبل لما أزعجنا شىء!. ولكنه لم ينعم بوحدته فى المخبأ طويلا إذا ما لبث أن اقتحمه صوت مباغت قائلا:

ـ ما رأيك فى الدنيا؟

ارتعد لوقع المباغتة وأجال عينيه فى الطرقة المقوسة فلم ير أثرا لإنسان. الصوت صوت كهل مخمور يغلى فى درجة الهذيان ولكن أينَ هو ؟!. وإذا بالصوت يقول ضاحكا:

ـ هل جربت الشرب فى الظلام؟

ثمة شجرة متوسطة ـ طبيعة أو صناعية ـ فى أصيص ضخم عند نهاية قوس الطرقة المفضى إلى محل الحلوى، وكان المحل فيما يلى الشجرة غارقا فى الظلمة إذايغلق أبوابه حوالى الثامنة مساء. واستنتج أن الرجل كان يجلس فى الطرقة، ولسبب ما تزحزح بمقعده إلى الظلام حيث يمارس مزاحه السخيف. وأهمله وهو يلعنه فى سره ولكن الآخر عاد يسأل دون أن يظهر فى منطقة الضوء الخافت:

ـ هل جربت الشرب فى الظلام؟

فتجنب محادثته لعله يسكت ولكنه قال:

ـ الشرب فى الظلام يهبك قدرة على التركيز وهذا هو السبب فى أننى أفكر فى حال الدنيا، فهل هى سائرة حقا إلى الخراب؟

راح يشاهد الرقص ـ ولو بنصف انتباه ـ ويعجب بالوجوه والصدور والبشرات الوردية، ولكن السكران لم يعتقه فقال:

ـ السؤال يهمنى حقا، فإذا كانت سائرة إلى الخراب فأنا أشؤب الكونياك أما إن كان ثمة أمل فى النجاة فإنى أفضل الويسكى. وإن

أكن فى الحالتين أهلكنفسى لأنى مصاب بثلاثة أمراض جليلة الشأن، ألا وهى الضغط والكبد والبواسير.

وعلى رغمه ابتسم. النشوة حلوة على أى حال. أما ما انقض على رءوس رجالنا من محن فأمر محزن حتى الموت. وكأنك تتلقى على يافوخك أنقاض العالم القديم الذى يتقوض. والأدهى من كل شىء أنك وإن كرهت العهد الجديد بقلبك فإنك لا تستطيع أن ترفضه بعقلك. لا أنت ولا مدخرك من مال العمد!.

ـ وليس الخراب بالشىء الجديد على العالم فإن يكن مكتوبا على الجبين فمن الخير أن يعجل..

فسأله وهو لا يدرى تقريبا:

ـ ولِم تريده على أن يعجل؟

ـ فضحك ضحكة مقرقرة وقال:

ـ لأن خير البر عاجله...

ورثى عيسى إلى ضحايا التاريخ من قلب متأوه، وأفرغ الثمالة ثم غادر المحل. وسار على مهل فى شارع سعد زغلول، أحب شوارع الإسكندرية إلى نفسه وبخاصة بعد الثورة، إنه شارعه الخاص عَلى وجه ما، ويحب كثيرا أن يقطعه ولو مرة كل يوم جيئة وذهابا، ليناجى فيض الذكريات. واقترب الوقت من نصف الليل وشاعت فى الجو برودة رقيقة منعشة وبدا المجال كله ملفعا بالهجران. وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدق فى البحر وطوح

برأسه إلى الوراء على طريقة الباشا الذى حلا له قديما محاكاته. واستقل الترام إلى الإبراهمية ثم ذهب إلى الكورنيش ليسلى أعصابه بالمشى الوئيد. وفاقَت ملاحة الجو خيال رأسه الدائر بالشراب، وومضت النجوم فى الثغرات الواسعة بين السحاب، واستكان البحر كالنائم تحت الظلام. وعلى البعد امتد سياج من الأضواء الثابتة فوق مراكب الصيد، وخلا الطريق من الأحياء فعادت تلح صورة الهجران. وجلس على أريكة حجرية ينعم بالصمت والحنان. إنه لا يعود إلى مسكنه الخالى حتى يقنعه النعاس. ومنذ قدومه إلى الإسكندرية وهو يعيش غير خاضع لإنسان أو لعادة ولكنه يطيع مطَالب شخصه الطبيعية فى حرية مطلقةَ، فينام إذا حل سلطان النوم ويستيقظ إذا مل الرقاد، ويأكل عند الجوع ويخرج لدى الملل، هذه الحرية التى لم ينعم بها من قبل. وشعر بشىء يلفت رأسه إلى اليسار. كان إغراء يراسل حاسة أو أكثر من حواسه. رأى شبحا يتجه من بعيد نحو مجلسه، وعندما اقتربت من ضوء المصباح العملاق وضحت معامله، فتاة من بنات الليل. الفستان الكستور الرخيص والنظرة المقتحمة بلا أدنى تحفظ أو كبرياء والانفراد المريب بالليل كل أولئك يقطع بأنها من بنات الكورنيش. وتفحصها وهى تمر أمامه فى المشى الضيق الفاصل بين الأريكة وسور الكورنيش فوضح له شبابها ووسامة لا بأس بها فى عارضها وابتذال نظراتها وجو التأهب لتلبية الإشارة الذى يغلفها كأنها كلب مهجور يلتمس عابرا ليتبعه. سارت حَتى بلغت الأريكة التالية ثم جلست عليها مسددة الوجه ناحيته. أتعس بنات الهوى درجة ولكن ما أشد انطواء

الإسكندرية على نفسها فى غير أيام المصيف حتى لتبدو مغلفة الأبواب فى وجه الغريب. وانبعث من أعماقه تأفف ولكن فى نبضة رغبة جنونية. من المحقق أن الأستاذ مدير مكتب الوزير المتطلع إلى الوزارة قد ملت ولم يبق فى هذه اللحظة إلا ثمل منغرز فى الوحدة والظلام تزحف غرائزه فى الظلام كالحشرات الليلية وكأن دفعة قوية نحو التمرغ فى التراب تنفخ فى محركاته، ولوح لها بذراعه كأقصى ما يمكن أن يجود فى مغازلتها، ولوح مرة أخرى فقامت من مجلسها وجعلت تقترب منه حتى توقفت على بعد ذراع فأشار لها بالجلوس فجلست وهى تضحك ضحكة خافتة جدا كخرير الموج الهامس أسفل الكورنيش. تفرس فى وجهها فهالته طفولتها وسألها فى دهشة:

ـ كم عمرك؟

فضحكت ولم تجب فأعاد السؤال باهتمام فقالت:

ـ خمن.

ـ لعلك فى الخامسة عسرة!

قالت فى مباهاة:

ـ لا، لست قاصرة على أى حال فاطمئن..

مائلة للبياض مستديرة الوجه ممتلئة الوجنتين ذات جسم صغير ممتلئ مقصوصة الشعر كغلام، ولم تكف عن العبث بأظافرها التى بهتت صبغتها:

ـ من أين أنت آتية فى هذه الساعة؟

فأشارت إلى الوراء بميل قائلة :

ـ من القهوة .

لاحت القهوة لعينه بابا مضاء يكتنفه الظلام والصمت فقال :

ـ لم أرها فى سيرى!

ـ يراها عادة من يقصدها .

ثم وهى تضحك :

ـ سيجارة؟

وأشعلا سيجارتين، ولم يجد شيئا يقوله فهمس :

ـ بنا . .

وسارا جنبا إلى جنب فى الطريق المتفرع عن الكورنيش وتأبطت ذراعه فعبس فى الظلام . وتذكر سلوى فاستفحلت عبوسته، وقال لنفسه «فليحتكموا إلى انتخابات حرة إن كانوا صادقين!» .